تأليف: الشهيد عبدالزهراء عثمان محمد

الفهرس

المقدمة:	
القسم الأول: وليد البيت العتيق	ويتضمن: سيرة أميرالمؤمنين (عليه السلام) في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعهد الخلفاء الذين سبقوه تاريخياً في قيادة المسلمين
القسم الثاني: دعوني والتمسوا غيري	ويتضمن: دراسة حياة الإمام (عليه السلام) أيام توليه خلافة المسلمين، ومواقفه البطولية النبيلة في مجالات: السياسة، والإدارة، والاقتصاد، والاجتماع، وشؤون الحرب والسلم
القسم الثالث: ما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل	ويتضمن: الملامح الأساسية لشخصية أميرالمؤمنين (عليه السلام) من حيث علاقته بالله تعالى، وعلاقته بالناس من حوله، وعطائه العقائدي، والعلمي، والفكري

القسم الأول

	بزوغ الفجر
	أول المؤمنين
	مهمات ما بعد الهجرة
	علي في منظار الإسلام
	علي في عهد الخلفاء
	خاتمة

القسم الثاني

	مقدمة
	الإمام الخليفة
	منهاج الإصلاح
	سياسة رد الفعل
	حرب البصرة
	حرب صفين
	حرب النهروان
	في ذمة الله

القسم الثالث

	توطئة
	شخصية علي (عليه السلام) من خلال عناصرها الأساسية
	علاقة الإمام علي (عليه السلام) بالله تعالى
	شواهد من عبادة أميرالمؤمنين (عليه السلام)
	المنهج العبادي في خطوطه الأساسية
	الأخلاق الاجتماعية
	في حقل المعرفة
	من أبعاد المعرفة
	صور من الفكر العقائدي
	صور من الفكر السياسي ـ الاجتماعي
	مصنفات الإمام (عليه السلام) وأعماله العلمية
	أنباء المستقبل
	طرف من مواعظ الإمام
	قبس من حكم الإمام

مقدمة

«ما لقي أحد في هذه الأمة ما لقيت..»(١)

الإمام

علي (عليه السلام)

لم يلاقِ، عظيم في التاريخ البشري، ما لاقاه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، من ظلم وأثرة في حياته وبعد موته.

فإذا كان قد عانى الكثير في حياته، المليئة بالمآثر والأمجاد، فإن الظلم قد استبد به، فحرم من أبسط الحقوق وهي: كتابة تاريخية، بإنصاف وصدق، بعد وفاته، ولفترة طويلة.

فبعد رحيل الإمام إلى الرفيق الأعلى، أخضعت أجيال الأمة الإسلامية، لعملية مسح دماغي، ليس لها مثيل، كي تنسى علياً (عليه السلام)، ودوره الإيجابي الفعال، في دفع حركة الإسلام التاريخية، نحو العزة والمجد.. أو لتأخذه في إطار مشوه ممسوخ!!

وحسبك، بأن عشرات من السنين، قد سخرت فيها المنابر -وهي أعظم الأجهزة التربوية والإعلامية لدى المسلمين يومذاك- في سب علي (عليه السلام) وتشويه تاريخه الفذ.. حقداً على الإسلام، وثأراً لمشركي بدر..

فكانت «خطبة الجمعة» مثلاً في العهد الأموي، تفتتح بالنيل من الإمام (عليه السلام)، بكلمات يأبى التاريخ أن تسطر على صفحاته(٢) وكانت تسند تلك العملية قوى، وأجهزة حكم، ورواة ومحدثون مأجورون، ومؤرخون للسلاطين، و.. و.. محاولة طمس معالم تاريخ الإمام علي (عليه السلام)..

بيد أن تاريخ الإمام علي (عليه السلام)، وإن كان تعرض لذلك اللون المخجل، والطمس والتزوير، والتجهيل، فإن أحداً، كائناً من كان، ليس بمقدوره أن يطمس معالمه الأساسية، لارتباطها العضوي بالإسلام الحنيف ومجده.. فحبل الكذب قصير.. ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

وهكذا، فإن الأقلام المأجورة، وتشكيلة المرتزقة، التي حاولت أن تكتب لعلي تاريخاً على هواها، ووفقاً لمصالحها، وما تملك من خلفيات ومرامي منخفضة، قد أخطأت التقدير، وجهلت أن الحق لا يمكن أن يحجب طويلاً، وأن الزبد لابد أن يذهب جفاء...

وشعوراً منّا بالمسؤولية الشرعية في توعية الأمة، وتبصيرها بحقائق دينها ووقائع تاريخها المجيد، ونفض تراب التعمية والتضليل عن حقائق أحداث المسيرة التاريخية لهذه الأمة منذ بدايات تاريخها... شعوراً منّا بهذه المسؤولية العظيمة نضع هذه الدراسة حول سيرة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ودوره في حركة الإسلام التاريخية بين أيدي المسلمين..

وللضرورة الفنية قسمت هذه الدراسة إلى أقسام ثلاثة:

سنتناول في القسم الأول منها سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام)، في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعهد الخلفاء الذين سبقوه تاريخياً في قيادة المسلمين.

وفي القسم الثاني: ينصب البحث على دراسة حياة الإمام (عليه السلام)، أيام توليه (خلافة) المسلمين، ومواقفه البطولية النبيلة، في مجالات السياسة، والإدارة، والاقتصاد، والاجتماع، وشؤون الحرب والسلم وأمثال ذلك.

أما القسم الثالث: فيتخصص في إبراز الملامح الأساسية لشخصية أمير المؤمنين (عليه السلام)، من حيث علاقته بالله تعالى، وعلاقته بالناس من حوله، وعطائه العقائدي، والعلمي، والفكري، الذي أسداه للأمة الإسلامية والناس أجمعين.

والله نسأل التسديد والتأييد، والهداية والتوفيق للعمل من أجل تكريس كل الطاقات، والإمكانات المتاحة في إطار الصراع الفكري القائم، بين أمتنا الإسلامية المجاهدة، وبين خصومها الألداء، حتى تسود شريعة الإسلام العظيم.. إنه سميع مجيب.

١٩٩٩/١/١ م

المؤلف

١ - أنساب الأشراف/ للبلاذري ج٢ ص١٧٧.

٢ - راجع نماذج من ذلك في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٤ ص٥٦١ وما بعدها ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩.

بزوغ الفجر

في يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب المبارك، وقبل بعثة محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) باثنتي عشرة سنة، اشتد المخاض على فاطمة بنت أسد، فجاء بها أبو طالب إلى الكعبة المشرفة، وأدخلها فيها ثم قال لها اجلسي.. وخرج عنها فرفعت يدي الضراعة إلى العلي الأعلى سبحانه قائلة: «ربي إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (عليه السلام) وإنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت والمولود الذي في بطني إلا ما يسرت عليّ ولادتي(١).

ولم يمض على فاطمة غير ساعة حتى أعلنت أنها قد ولدت ذكراً، وهو أول مولود ولد في الكعبة المشرفة ولم يولد فيها بعده سواه تعظيماً له من الله سبحانه وإجلالاً(٢)، وأسرع البشير إلى أبي طالب وأهل بيته، فأقبلوا مسرعين والبشر يعلو وجوههم..

وتقدم من بينهم محمد(٣) (صلى الله عليه وآله) فضمه إلى صدره وحمله إلى بيت أبي طالب، حيث كان الرسول في تلك الآونة، يعيش مع خديجة، في دارهما منذ زواجه منها.

وانقدح في ذهن أبي طالب، أن يسمي وليده «علياً» وهكذا كان..

وأقام أبو طالب وليمة، على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام(٤).

وقد حضر وليمته جمع حاشد من الناس: قدموا التهاني، وعاشوا ساعات من البهجة، أبدوا فيها مشاعرهم الفياضة، وأحاسيسهم السامية، نحو عميدهم شيخ الأبطح، ووليده المبارك..

ومرت الأيام سريعة، والوليد المبارك يتقلب بين أحضان والديه: أبي طالب، وفاطمة، وابن عمه محمد (صلى الله عليه وآله)، الذي كان دائم التردد على دار عمه، التي ذاق فيها دفء المودة، وشرب من ينابيع الإخلاص والوفاء الصافية، خلال سنوات صباه وشبابه.

أجل كان محمد (صلى الله عليه وآله) يتردد كثيراً على دار عمه، بالرغم من زواجه من خديجة، وعيشه معها في دار منفردة، وكان يشمل علياً بعواطفه، ويحوطه بعنايته، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره.. ويحرك مهده عند نومه، إلى غير ذلك من مظاهر العناية والرعاية..

في كفالة رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وبعد مضي ست سنوات على ولادة علي (عليه السلام) تعرضت قريش لأزمة اقتصادية خانقة، وقد كانت وطأتها شديدة على أبي طالب، إذ كان رجلاً ذا عيال كثيرة، وكهف يلوذ به المحتاج والفقير، بحكم مركزه الاجتماعي في مكة... أيرضى المصطفى (صلى الله عليه وآله) وبنو هاشم، أن تقسوا الحياة على عميدهم؟!

أقبل الرسول (صلى الله عليه وآله) على عمه العباس بن عبد المطلب، وهو أثرى بني هاشم يومها، فخاطبه بقوله: «... يا عم، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله، فتأخذ أنت رجلاً واحداً، وآخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه..»(٥).

وحظي رأي المصطفى (صلى الله عليه وآله) بالتأييد والرضاء من لدن عمه العباس، فأسرعا إلى أبي طالب، وخاطباه بالأمر، فاستجاب لما عرضا قائلاً: «إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً، فاصنعا ما شئتما..»(٦).

فأخذ العباس جعفراً...

وأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام)، وكان عمره يومئذ ستة أعوام(٧)، وقد قال (صلى الله عليه وآله)، بعد أن اختار علياً (عليه السلام): قد اخترت من اختاره الله لي عليكم - علياً(٨).

وهكذا عاش علي (عليه السلام) منذ نعومة أظفاره في كنف محمد (صلى الله عليه وآله): نشأ تحت رعايته، وشرب من ينابيع مودته وحنانه، ورباه وفقاً لما علمه ربه تعالى، ولم يفارقه منذ ذلك التاريخ، حتى لحق الرسول (صلى الله عليه وآله) بربه الأعلى..

حصيلة الأعداد النبوي:

أشار الإمام علي (عليه السلام) إلى أبعاد التربية التي حظي بها من لدن قائده الرسول (صلى الله عليه وآله)، ومداها وعمقها، وذلك في خطبته المعروفة بالقاصعة، إذ جاء فيها ما نصه: «وقد علمتم موضعي من رسول الله صلّى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبه في قول، ولا خطأه في فعل.

«ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله، من لدن إن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به».

«ولقد كان يجاور في كل سنة (بحراء) فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام، غير رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخديجة، وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة..»(٩).

والذي يستقري هذا النص، بإمعان، يتجلى له أن علياً (عليه السلام) قد حظي برعاية الرسول (صلى الله عليه وآله) وحدبه، وإيثاره أيام طفولته، فكان يمضغ الشيء ثم يضعه في فمه، ويضعه في حجره، ويضمه إلى صدره، ويعامله كما لو كان ولده الحبيب...

أما في صباه، وشبابه، فقد أنصب جهاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) على تكوين شخصيته: إذ كان يأمره بالإقتداء به، وسلوك سبيله، وفي كل يوم يرفع له من أخلاقه علماً وعليّ كان يتبع أثره، أولاً بأول، كما يصف ذلك في حديثه.

ولهذا وذاك، فإن من خطل الرأي، أن لا يعتقد إمرء أن مسألة اختيار علي (عليه السلام) من لدن الرسول (صلى الله عليه وآله) كانت هادفة ابتداء لكي يأتي صورة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في فكره ومواقفه وشتى ألوان سلوكه، بل حتى في مشيته(١٠).

فلقد كان الإمام علي (عليه السلام) من الصفا الروحي، والاستقامة الخلقية، وفقاً لما علمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحيث كانت تتكشف له الكثير من حجب المستقبل المستور، فها هو يقول: «ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي عليه، صلوات الله عليه، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال: هذا الشيطان قد آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلي خير..»(١١).

فإن الشوط الذي قطعه في مضمار التقرب إلى الله سبحانه، وامتثال أوامره، وتجسيد متطلبات رسالته، رشحه لأن يكون وزيراً للنبوة، وهو مقام، لا يناله إلا من قطع شوطاً بعيداً، باتجاه قمة الفضيلة والتقى، فلم يفصله عن الرسول (صلى الله عليه وآله) إلا درجة النبوة، فارتقى منصة الوزارة بحق وجدارة، وهكذا كان علي...

في كنف الوحي:

وإذا كان الإمام (عليه السلام) قد عاش ستة سنوات، في أحضان والديه وإخوته، وكان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) دور بارز في رعايته، طوال تلك السنوات الندية من عمره (عليه السلام). فإن رعاية علي وتربيته، صارت من اختصاص المصطفى (صلى الله عليه وآله) دون منازع، منذ السنة السادسة، حيث انتقل (عليه السلام) إلى داره (صلى الله عليه وآله) على أثر الضائقة المالية التي ألمت بأبيه أبي طالب، كما ذكرنا.

ومنذ تلك السن المبكرة عاش علي (عليه السلام) مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بيته قبل الدعوة، حيث قضى تحت رعايته سنوات الصبا وسنوات التفتح على الحياة، وخلالها عاش الإمام (عليه السلام) كل التطورات التي اكتنفت حياة الرسول (صلى الله عليه وآله)..

فعلي لم يحظ بالتربية المألوفة، التي يحظى بها غالباً طفل من لدن أبيه، أو صغير من لدن أخيه الأكبر، وإنما كان إعداده وتربيته من نوع خاص، وحسبك أنه كان يتبع محمداً (صلى الله عليه وآله) حتى في ساعات اختلائه في غار حراء.. ويشهد التطور الروحي والفكري الذي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يمر فيه، وها هو (عليه السلام) يستذكر تلك الأيام الخالدة وذلك الشطر الحساس من حياته، فيقول: «... ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري»(١٢) - كما ألمحنا إلى ذلك- أجل كان (عليه السلام) يعيش التحول الروحي الهائل، الذي شهدته نفس المصطفى (صلى الله عليه وآله)، حتى اشرق عليه وحي السماء المبارك.

ولقد كان للمستوى الروحي والخلقي البعيد المدى الذي سمت إليه نفس علي (عليه السلام)، أن شعر بالتحول الكبير، الذي جرى في عالم الغيب، من انهزام للشيطان، بعد يأسه من أن يُعبد، فور بعثة الرسالة الخاتمة... فلقد شهد علي إرهاصات النبوة التي شهدها أستاذه ومعلمه الرسول (صلى الله عليه وآله)، وعاشها كما عاشها بملء كيانه، حين سطع الهدى، وتلقى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أول بيان من السماء، لتكليفه بحمل الرسالة.

(إقْرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إقْرَأ وَرَبُّكَ الأكرَم الّذي عَلَّمَ بالقلم علَّمَ الإنسَان مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق١-٥).

١ ـ كشف الغمة ج١ ـ فصل ذكر الإمام علي (عليه السلام).

٢ ـ مستدرك الحاكم ج٣ ص٤٨٣ والكفاية للحافظ الكنجي الشافعي وشرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ص١٥ ونور الأبصار للشبلنجي ص٧٦ ومطالب السؤول ص١١ لمحمد أبي طلحة الشافعي والمناقب للأمير محمد صالح الترمذي. نقلاً عن الغدير ج٦ من ٢٢ إلى ٣٨ لعبد الحسين الأميني ط٣ سنة ١٩٦٧ بيروت.

٣ ـ الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ لابن الصباغ المالكي/ الفصل الأول ص١٣.

٤ ـ البحار ج٣٥ ص١٨.

٥ ـ الفصول المهمة/ لابن الصباغ الفصل الأول ص١٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص١٥١.

٦ ـ سيرة ابن هشام ج١ باب ذكر أن علي بن أبي طالب أول ذكر أسلم ص٢٨٤، وبحار الأنوار ج٣٥ ص٤٤ وشرح النهج ج١ ص١٥.

٧ ـ في رحاب علي/ خالد محمد ص٤٦ ط٢ دار الأندلس بيروت وشرح النهج ج١ ص١٥١.

٨ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص١٥ نقلاً عن البلاذري والأصفهاني.

٩ ـ نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح ط١٩٧١ ص٣٠٠.

١٠ ـ علي بن أبي طالب عبد الفتاح عبد المقصود ج١ ص٣٩.

١١ ـ نهج البلاغة ص٣٠١ (الخطبة القاصعة). تبويب د. صبحي الصالح.

١٢ ـ الخطبة القاصعة من نهج البلاغة ص٣٠١ تبويب د. صبحي الصالح.

مقدمة

.. في هذا الجزء من دراستنا لحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ينصب البحث على دراسة أدق المراحل، التي عاشها الإمام (عليه السلام)، بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وهي مرحلة اضطلاعه، بمسؤولية القيادة المباشرة للأمة الإسلامية، في جميع شؤونها الحياتية.

فقد اتسمت هذه المرحلة بأحداث غاية في الأهمية، على الصعيد الفكري، والاجتماعي، والسياسي، كما سنرى.

والتاريخ الإسلامي، قد شهد عبر السنوات الخمس التي قضاها علي (عليه السلام) حاكماً للمسلمين، لونين من الأحداث:

أحدهما: يتعلق بما سجله الإمام (عليه السلام) على صفحات التاريخ الإنساني، من القيم الرفيعة، التي اتسمت بها سياسته الفاضلة، التي تبناها من أجل وضع حدود الله تعالى، وشريعته العظيمة، موضع التنفيذ، كاملة لا نقص فيها، ولا تحايل عليها، ولا تفريط، ولا أنصاف حلول، وعلى شتى الأصعدة الحياتية..

وثانيهما: ما يتعلق بردود الفعل السياسية التي قام بها بعض الناس والتي سجلها التاريخ الإسلامي.

وفي هذه الدراسة التي بين يديك –أيها القارئ العزيز– ستقرأ شطراً من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو يعيد لجهاز الدولة مسؤولياته الحقيقية، في حماية رسالة الله تعالى، وإقامة حدودها في الحياة، والعمل على كل ما من شأنه توفير السعادة للإنسان، وبناء شخصيته وتحصينها..

وتقرأ عن علي (عليه السلام) كذلك، دوره في التصدي، سواء للذين نكثوا أو مرقوا أو قسطوا..

ومن خلال هذا الشطر من حياة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، ستقرأ شواهد من بنود عدالته الاجتماعية، التي جسدها في الواقع الاجتماعي، ومواقفه الإنسانية وشدة تمسكه بشريعة الله تبارك وتعالى.

والأمر الذي نسأل الله تعالى أن يوفق أمتنا الإسلامية للأخذ به، في حياتها العملية، هو الالتزام الكامل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، كما جسدهما عملاً الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

توطئة

كنا قد تناولنا في القسم الأول من دراستنا هذه لحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) دور رسول الله (صلى الله عليه وآله) في إعداد شخصية الإمام علي (عليه السلام) والإشراف المباشر على تشكيل عناصرها، منذ طفولته.. حتى صارت شخصية الإمام (عليه السلام) نسخة ثانية طبق الأصل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فكراً وعقيدة وسلوكاً فيما عدا الرسالة ومستلزماتها..

ولقد وصف الإمام (عليه السلام) طبيعة خضوعه لذلك اللون من الإعداد الرسالي وصفاً دقيقاً بقوله «.. وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطئة في فعل.

ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن إن كان فطمياً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم: ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه: اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله).

فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟

فقال: «هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وإنك لعلي خير..»(١).

فهذا النص الكريم إضافة إلى ما حفظه لنا التاريخ من سيرة الإمام (عليه السلام) يجسد لنا بعمق وقوة المدى الذي كان الإمام (عليه السلام) قد حظي به في مضمار الإعداد الرسالي المخطط الذي

خصه رسول الله (صلى الله عليه وآله) به. تهيئه له للنهوض بأعباء المرجعية الفكرية والسياسية في الأمة.

وقد بدأ ذلك الإعداد الرسالي من لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) منذ نعومة أظفاره فهو ربيبه الذي فتح عينيه في حجره، وهيأ له من فرص التفاعل معه وسلوك نهجه في الحياة ما لم يتوفر لأحد سواه.

وبالإضافة إلى ما كان قد خص به الإمام (عليه السلام) من لدن الرسول (صلى الله عليه وآله) أيام الطفولة والصبا من رعاية وتبن وتربية، الأمر الذي ألمحنا إليه في الحلقة الأولى من هذه الدراسة فإن الإعداد الرسالي للإمام (عليه السلام) منذ الدعوة المباركة، وحتى آخر ساعة من حياة

رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد اتسع مداراً وازداد شمولاً وأصبح أكثر تركيزاً.

والشواهد من حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) متظاهرة في هذا المضمار: فضلاً عن حرص الإمام (عليه السلام) على الاقتداء به بأقصى درجات الاقتداء وأصدقها وأكثرها أمانة، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يخصه بفكر الرسالة وحقائقها ومتطلباتها، ويمده بالمزيد من الثقافة الإلهية.

وكان (صلى الله عليه وآله) يختلي بالإمام (عليه السلام) الساعات الكثيرة آناء الليل والنهار ليعمق وعيه لمفاهيم الرسالة ومشاكل المهمة التغييرية التي بدأها رسول الله في الواقع الإنساني، وأساليب العمل من أجل إكمال ما بدأه الرسول (صلى الله عليه وآله).

روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن هند الجملي عن علي (عليه السلام) قال: «كنت إذا سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعطيت، وإذا سكت ابتدأني»(٢).

وعن ابن عباس عن علي (عليه السلام) قال «كان لي من النبي (صلى الله عليه وآله) مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار».

وعن أبي سعيد الخدري قال: كانت لعلي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخلة لم تكن لأحد من الناس».

وعن عبد الله بن يحيى عن علي (عليه السلام) قال «كنت أدخل على نبي الله (صلى الله عليه وآله) كل ليلة، فإن كان يصلي سبح، فدخلت، وإن لم يكن يصلي إذن لي فدخلت(٣).

وعن أم سلمة قالت «والذي تحلف به أم سلمة أن أقرب الناس عهدا برسول الله (صلى الله عليه وآله) علي (عليه السلام).. لما كان غدوة قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأرسل إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) -قالت- «وأظنه بعثه في حاجة» فجعل يقول: جاء علي؟ –ثلاث مرات– فجاء قبل طلوع الفجر فلما أن جاء عرفنا أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت وكنا عند رسول الله يومئذ في بيت عائشة، وكنت في آخر من خرج من البيت، ثم جلست من وراء الباب، فكنت أدناهم إلى الباب، فأكب عليه علي (عليه السلام)، فكان آخر الناس به عهداً، فجعل يساره ويناجيه»(٤).

ولقد كانت حصيلة ذلك الإعداد الرسالي الخاص من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن رشحت الرسالة الإلهية الإمام علياً (عليه السلام) لاحتلال موقع المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الإسلامية.

وقد عبر الإسلام الحنيف عن ذلك الترشيح بشتى الوسائل التعبيرية المباشرة، مجسداً مؤهلات علي (عليه السلام) لأمامة الأمة المسلمة تارة، ومعلناً تارة أخرى إسناد الإمامة له رسمياً:

فضائل علي (عليه السلام) من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وهذه بعض مؤهلات الإمام (عليه السلام) كما تطرحها النصوص الصحيحة:

١- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «مثل علي فيكم كمثل الكعبة..»(٥)

فحيث توحد الكعبة وجهة الأمة عند ساعات الوقوف بين يدي الله تعالى في الصلاة أو أداء شعائر الحج والعمرة، كذلك يفعل التزام علي (عليه السلام) والأخذ عنه في دنيا المسلمين.

٢- والإمام (عليه السلام) هو الصراط المستقيم الذي تستلهم الأمة منه العلم الإلهي ومعارف التشريع بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) دون سواه من الناس:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي، حبه إيمان، وبغضه نفاق..»(٦).

وقال (صلى الله عليه وآله) «أنا مدينة العلم وعلي بابها..»(٧).

٣- وأن علياً كرسول الله (صلى الله عليه وآله) في إقامة العدل بين الناس فكفه ككفه (صلى الله عليه وآله) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «يا أبا بكر كفي وكف علي في العدل

سواء»(٨).

٤- ويصف الرسول علياً (عليه السلام) بأنه كنفسه، فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لوفد ثقيف -حين جاؤوه- «لأسلمن أو لأبعثن إليكم رجلاً كنفسي ليضربن أعناقكم وليسبين ذراريكم، وليأخذن أموالكم –فالتفت إلى علي وأخذ

بيده– فقال: هو هذا، هو هذا» (٩).

٥- وأن الإمام (عليه السلام) أدرى المسلمين قاطبة بشؤون القضاء بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أقضى أمتي علي»(١٠) وهو إشارة من الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى أن الإمام علي (عليه السلام) أقدر من سواه على إدارة شؤون الأمة وحسم ما يشجر في حياتها العملية.

٦- وقال المصطفى (صلى الله عليه وآله) «علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة»(١١).

٧- وحيث أن علياً (عليه السلام) صنو الحق الذي هدى الله عباده إليه، فلا يفترق أحدهما عن الآخر، فقد دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمته لسلوك منهجه والاندماج بخطة لينقذها من الزيغ، ولكي لا تتبع السبل فتضل عن سبيل الله تعالى قال (صلى الله عليه وآله): «ستكون من بعدي فتنة، فإذا كان ذلك، فالزموا علي ابن أبي طالب، إنه أول من يراني، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو مني في السماء العليا، وهو الفاروق بين الحق والباطل»(١٢).

٨- وحول إيمان علي (عليه السلام) ومداه يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لو أن السماوات والأرض موضوعتان في كفة وإيمان علي في كفة لرجح إيمان علي (عليه السلام)(١٣).

هذه بعض مؤهلات علي (عليه السلام) كما بينها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

نصوص الإمامة:

أما النصوص التي تسند إليه أمر إمامة الأمة فكرياً وسياسياً بشكل صريح فنذكر منها.

١- آية الولاية:

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون).

(المائدة/ ٥٥ـ٥٦)

فقد ذكر المفسرون أن آية الولاية هذه قد نزلت في علي ابن أبي طالب (عليه السلام)، حيث تؤكد بلا أدنى شك أنه يجب على الأمة الإسلامية الالتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً وسياسياً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في علي (عليه السلام) كما روى ذلك جمع من الثقاة من المحدثين والمفسرين ـلحد الاستفاضةـ وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن سائلاً دخل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) يسأل

المسلمين المعونة فأشار الإمام (عليه السلام) إلى إصبعه وهو راكع فانتزع السائل خاتم الإمام من إصبعه وتصدق الإمام به وهو راكع فنزلت فيه هذه الآية(١٤).

٢- خطبة الغدير التي ألقاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع بعد أدائه مراسيم الحج الأكبر.

فعن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) سنته التي حج فيها، فنزل في بعض الطريق فأمر:

الصلاة جامعة فأخذ بيد علي،

فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قال: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): (ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟).

قالوا: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»(١٥).

وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»(١٦).

٣- وعن أم سلمة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إن الله اختار لكل نبي وصياً، وعلي وصي في عترتي وأهل بيتي وأمتي بعدي»(١٧).

هذه بعض النصوص الإسلامية الصحيحة التي أسندت أمر المرجعية الفكرية والسياسية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ولمن يريد المزيد من تتبع نصوص الإمامة مراجعة المصادر المختصة بالموضوع(١٨).

١ - نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح خطبة رقم ١٩٢ «القاصعة».

٢ - خصائص الإمام علي بن أبي طالب - للنسائي ط١ بيروت ١٩٧٥، وأنساب الأشراف للبلاذري ج٢ ص٩٨.

٣ - نفس المصدر ص٤٨.

٤ - نفس المصدر ص٦٥ وأخرجه أيضاً أحمد بن حنبل في مسنده والكنجي والمحب الطبري وغيرهم نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص٧٧ - ٧٨ مط الأعلمي كربلاء.

٥ - جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ج١ ص٩٦ وابن عساكر من حديث أبي بكر وعثمان وعائشة وسواهم، وأخرج الحديث الكنجي الشافعي في الكفاية والخوارزمي في المناقب، نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص٦ - ٧ مط الأعلمي - كربلاء.

٦ - أخرجه أبو نعيم في الحلية ورواه الديلمي في فردوس الأخبار والحموييني في الفرائد وغيرهم نقلاً عن المصدر السابق ص٧.

٧ - أخرجه أحمد بن حنبل والترمذي في جامعة الصحيح نقلاً عن فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي الحافظ أحمد بن محمد الغماري ط٢ ١٩٦٩.

٨ - أخرجه جلال السيوطي في تاريخ الخلفاء وابن عساكر في تاريخه الكبير والمناقب للخطيب الحنفي نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص١٢.

٩ - وأخرجه ابن حنبل في المناقب أيضاً وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية والترمذي وغيرهما، نقلاً عن علي والوصية ص٣٤٦ - ٣٤٧ بألفاظ متشابهة.

١٠ - الرياض النضرة ج٢ ص١٩٨ والكنجي الشافعي في الكفاية والفصول المهمة - لابن

الصباغ المالكي وأنساب الأشراف للبلاذري نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص٣٢ ط الأعلمي.

١١ - الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ج٤ ص٣٢١ وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وكنز العمال والزمخشري في ربيع الأبرار والحموييني في فرائد السمطين وغيرهم، نقلاً عن علي والوصية ص١١٣.

١٢ - الكنجي الشافعي في كفاية الطالب والحافظ في أمالية وغيرها، نقلاً عن علي والوصية ١٦٧.

١٣ - أخرجه الديلمي عن ابن عمر، يراجع كنز العمال ج٦ ص١٦٥ والرياض النضرة ج٢ ص٢٢٦ أخرجه عن عمر بن الخطاب نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص١٥ ط الأعلمي - كربلاء.

١٤ - راجع تفسير الآية في كل من: تفسير البيضاوي ومجمع البيان للطبرسي، وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، وأبو البكرات النسفي في تفسيره، والنيسابوري في تفسيره، والشبلنجي في نور الأبصار وابن حجر في صواعقه المحرقة وغيرهم. نقلاً عن فضائل الخمسة في الصحاح الستة ج١ وأعيان الشيعة ج٣ ق١ ص١٣٠ وما بعدها.

١٥ - لفظ صحيح ابن ماجة ص١٢.

١٦ - مسند أحمد بن حنبل ج٤ ص٢٨١ وقد نص على أن الحديث رواه ثلاثون صحابياً. وقد أخرج الحديث غيره كالنسائي في الخصائص والطبراني عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وكنز العمال ج١ ص٤٨ ومستدرك الصحيحين نقلاً عن كتاب الغدير ج١ للشيخ عبد الحسين الأميني.

١٧ - الموفق بن أحمد الحنفي في مناقبه والحموييني الشافعي في فرائد السمطين وفي مسند أحمد بن حنبل حديث الوصية يشبهه وللثعلبي في الكشف والبيان وابن المغازلي مثله نقلاً عن علي والوصية ص٢٣٥.

١٨ - ككتاب «الغدير» للشيخ عبد الحسين الأميني و«دلائل الصدق» للشيخ محمد حسن المظفر و«وأحاق الحق» للقاضي التستري و«عبقات الأنوار» للسيد مير حامد حسين و«المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين.. وغيرها.

أول المؤمنين

حين تلقى الرسول (صلى الله عليه وآله) بيان التكليف الإلهي، بحمل الرسالة، عاد إلى بيته فأطلع علياً(١) (عليه السلام)، بأمره فاستقبله (عليه السلام) بالتصديق واليقين، كذلك فعلت خديجة الكبرى، فانبثق من أجل ذلك أول نواة لمجتمع المتبقى في الأرض.

على أن يجدر بنا، أن نعي أن علياً (عليه السلام) لم يدعه الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى الإسلام كما دعا غيره فيما بعد، أبداً، لأن علياً (عليه السلام) كان مسلماً على فطرة الله تعالى، لم تصبه الجاهلية بأوضاعها، ولم يتفاعل مع شيء من سفاسفها، وكل الذي كان: أن علياً (عليه السلام) قد أطلعه الرسول القائد (صلى الله عليه وآله) على أمر دعوته ومنهج رسالته، فأعلن تصديقه وأيقن بالرسالة الخاتمة، وبادر لتلقي توجيهاته المباركة تلقي تنفيذ وتجسيد.

ولهذا يقال (كرم الله وجهه)

فإن علياً (عليه السلام) كان مؤهلاً -كما بينا في مطلع الحديث- لاتباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في دعوته، لأنه (صلى الله عليه وآله) كان قد أنشأ شخصيته، وأرسى لبناتها الأساسية.

ولا أظنني أضيف جديداً إذا قلت أن الإمام (عليه السلام) لم يفاجأ بأمر الدعوة المباركة، طالما عاش في كنف رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتفيأ ظلاله، فالمصطفى (صلى الله عليه وآله) - كما نعلم- كان يعبد ربه تعالى وينأى عن الجاهلية في مفاهيمه وسلوكه وعلاقاته، قبل أن ينزل عليه وحي السماء، بأول سورة من القرآن الكريم(٢).

وعلي (عليه السلام) كان مطلعاً على عبادة أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وممارساته وتحولاته الروحية والفكرية، فكان يتعبد معه، وينهج نهجه، ويسلك سبيله، في ذلك السن المبكر من عمره..

أما حين فاتحه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر الدعوة الإلهية، فقد لبى النداء بروحه ووعيه وكل جوارحه، دون أن يباغت في الأمر، وإن كان هناك جدة في المسألة فإنما هي في الكيفية التطبيقية للرسالة ودرجة المسؤولية الواجب تحملها أو تفاصيل الأحكام.. وحين بُلِّغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر التكليف الإلهي لحمل الدعوة المباركة، بلغ كذلك، أن تنصب

دعوته أولاً على الخاصة من أهل بيته (عليهم السلام)، وقد أشار ابن هشام في سيرته لذلك بقوله: «فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) يذكر ما أنعم الله عليه، وعلى العباد به، من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله..»(٣). ومن أجل ذلك فاتح علياً وخديجة بالدعوة -كما ذكرنا- وبعدهما زيد بن حارثة، وبقي أمرها طي الكتمان لا يعلمه غير هؤلاء، وبعض الخاصة من أهل البيت (عليهم السلام).

وقد أشار الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث له حول إسلام جده علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: «... ولقد آمن بالله تبارك وتعالى وبرسوله (صلى الله عليه وآله) وسبق الناس كلهم إلى الإيمان بالله وبرسوله والى الصلاة ثلاث سنين»(٤).

ولأسبقيته في حمل الدعوة أشار الإمام (عليه السلام) في حديث جاء فيه «.. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة..».

وبعد أن تخطت الدعوة مرحلة دعوة الخاصة من أهل البيت (عليهم السلام) جاءت مرحلة دعوة من يتوسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم القبول لدعوته، فانخرط عدد من الناس في سلك الدعوة، كان أغلبهم من الشباب، وكانت لقاءاتهم من أجل قراءة القرآن الكريم، والتعرف على أحكام دين الله تعالى تتم بصورة سرية..

أول الدعاة:

ثم أذن الله عز وجل لرسوله (صلى الله عليه وآله) بدعوة عشيرته الأقربين من بني هاشم، ليوسع من مدار الدعوة بذلك، فقال تعالى:

(.. وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِن الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعمَلُونَ) (الشعراء/ ٢١٤–٢١٦).

فلما تلقى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر ربه الأعلى بإنذار عشيرته الأقربين، أمر علياً (عليه السلام) أن يدعوهم إلى طعام عنده، فحضروا إلى دار رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكانوا أربعين رجلاً.

وبعد أن تناولوا طعامهم، بادرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بقوله «.. بإبني عبد المطلب، أن

الله بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، فقال: «وأنذر عشيرتك الأقربين» وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان، تملكون بهما العرب والعجم، وتنقاد لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني عليه، وعلى القيام به يكن أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي..»(٥).

وبين تنديد أبي لهب، وتحذيره للرسول (صلى الله عليه وآله) من الاستمرار بالدعوة من جهة، وتأييد أبي طالب له ومخاطبته الرسول (صلى الله عليه وآله) بقوله: «فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك»(٦).

أقول من خلال التأييد، الذي أعلنه أبو طالب، والتنديد البليد الذي أعلنه أبو لهب، وقف علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكان أصغر الحاضرين سناً فقال: «أنا يا رسول الله أوازرك على هذا الأمر» فأمره الرسول (صلى الله عليه وآله) بالجلوس، ولما لم يجبه أحد نهض علي ثانية والرسول (صلى الله عليه وآله) يجلسه..

وأعاد الرسول (صلى الله عليه وآله) دعوته إلى قومه، فلم يجبه أحد، وكان صوت علي (عليه السلام) وحده يلبي الدعوة، ويهدر بالمؤازرة والنصرة، فمزق صمتهم بصلابة إيمانه، وقوة يقينه، وحيث لم يجب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحد للمرة الثالثة.. التفت إلى مجيبه الوحيد، قائلاً: «اجلس فأنت أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي»(٧).

فنهض القوم من مجلسهم، وهم يخاطبون أبا طالب: «ليهنئك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك».

مواجهة الجاهليين:

ودخلت الدعوة إلى الله مرحلة المواجهة –بعد إنذار العشيرة– وأول من قاد ردّ الفعل أبو لهب وزوجته، وكانا يعترضان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويزرعان المشاق في طريقه، لإثنائه عن دعوته المباركة ولكن دعوة الله سبحانه مضت، تشق طريقها في المجتمع الجاهلي المتحجر ذاك، فقد انتقلت بعد إبلاغ العشيرة إلى الدعوة العامة، حيث وقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند البيت الحرام، وخاطب الجموع بأنه رسول الله إليها(٨)..

وبعد الدعوة تزايد عدد المؤمنين وأغلبهم من الشباب ومن شتى قطاعات المجتمع المكي..

وكان لتزايد عدد المؤمنين برسالة الله تعالى أثر بالغ على موقف الجاهليين، فقد سلكوا أسلوب الإرهاب للرعيل الأول من المؤمنين، فكانت كل قبيلة وكل بيت يتصدى لمن فيه من المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد(٩)، والمؤمنون يزدادون صموداً وإيماناً بصوت الحق والهدى، الذي دوى به صوت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرددته النفوس الظمأى إلى الخير والانعتاق..

وبسبب التعذيب الجسدي الوحشي، الذي صب على المؤمنين، كانت هجرة الحبشة التي قادها جعفر بن أبي طالب والذي يكبر علياً (عليه السلام) بعشر سنين، وكان لجعفر وحكمته الأثر الفعال في إفشال مخطط قريش في إثارة ملك الحبشة على المهاجرين، لطردهم من بلاده.

أبو طالب يتصدى لأعداء الرسالة:

وإذا كانت قريش قد تصدت للسابقين من المؤمنين بالعنف والاضطهاد، فإنها ليست قادرة على التصدي لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، قائد الدعوة ورسولها، بنفس المستوى، لعلمها أن أبا طالب شيخ الأبطح،

يحول دون تحقيق أي لون من ألوان التصدي والإرهاب لرسول الله (صلى الله عليه وآله).

فأبو طالب، رجل مرهوب الجانب، ذو سطوة ونفوذ، ليس في بني هاشم وحدهم، وإنما في قبائل مكة كلها.

وقد كان الرجل سند الدعوة وجدارها الشامخ، الذي تستند إليه منذ تباشير فجرها الزاهر..

وقريش، كانت تدرك ذلك تماماً.

ومن أجل ذلك، سلكت أسلوب المفاوضة، والمساومة والإغراء: تفاوض الدعوة والرسالة في شخص الرسول (صلى الله عليه وآله) مرة، وفي شخص أبي طالب مرة أخرى.. فحين كانت تعرض المال والسلطان على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، مقابل تركه الدعوة، والتنازل عن الرسالة، فإنها كانت تفاوض أبا طالب، وتحاوره بشأن دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله)، طالبة أن يستعمل نفوذه، بالضغط عليه، لترك رسالته، وتهدده باحتدام الصراع بينه وبين قريش كلها، إذا لم يخل بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويكف عن إسناده له.

بيد أن أبا طالب، كان يعلن إصراره على التزام جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والذود

عنه، مهما غلا الثمن، وعظمت التضحيات.

أبو طالب في الحصار مع رسول الله (صلى الله عليه وآله):

ولما استبد اليأس بقريش، من أن أبا طالب لن يفرّط بمحمد (صلى الله عليه وآله) ودعوته، عقد زعماؤها اجتماعاً طارئاً في دار الندوة -وهي دار قصي بن كلاب التي اعتادت قريش أن تجتمع فيها للتشاور في القضايا المصيرية من حياتها. وتوصل المجتمعون إلى قرار، يقضي بحصار بني هاشم، ومن يلوذ بهم، حصاراً اقتصادياً واجتماعياً، ينصب على عدم مبايعة بني هاشم أو الشراء منهم، أو تزويجهم، أو التزوج منهم، وقد ذيل قرار المقاطعة ذلك بأربعين توقيعاً لزعماء قريش...

ودخل بنو هاشم شعب أبي طالب، بناء على أوامر من عميدهم أبي طالب ذاته، حماية لأنفسهم من سطوة قريش، وأصبح من المتعذر عليهم الخروج إلى مكة، إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة من كل عام. وبالنظر لتفاقم الموقف بين بني هاشم وقريش، شدد أبو طالب الحراسة على الشعب، بعد تحصينه، خشية هجوم قريشي مباغت.

واستمر الحال ببني هاشم –بما فيهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي ابن أبي طالب (عليه السلام) هكذا ثلاث سنين – وقيل أربعاً – وقد عانوا من شظف العيش، والحرمان والفاقة، وما يدمي القلب، ويحز في النفس.

ولك أن تقدر حجم ما عانى المحاصرون من ضيق، إذا علمنا أن قريشاً قد شددت عليهم الحصار بشكل كامل، فقطعت عنهم التموين، وكانت غالباً ما تضاعف أثمان البضائع، ليعجز بنو هاشم عن شرائها، بشكل أدى بهم إلى المجاعة الحقيقية، حتى أن صراخ أطفالهم وتضورهم جوعاً كان يسمع من بعيد.

وبعد أن تصرمت السنون الثلاث، بعسرها وآلامها وفاقها، أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عمه أبا طالب أن صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش قد أتت دودة الأرضة على ما فيها من ظلم وقطيعة فأكلتها، إلاّ عبارة «باسمك اللهم» فأسرع أبو طالب إلى قريش، قائلاً:

«.. إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فأكلتها، غير اسم الله، فإن كان صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم..»(١٠).

قالوا: قد أنصفتنا.. ثم فتحوها، فإذا هي كما قال.. ووقع نزاع حاسم بين قريش، نتج عنه تمزيق الصحيفة، وانتهاء المقاطعة، ورفع الحصار عن بني هاشم، وقد كان لإفشال مشروع الحصار بذلك الشكل الإعجازي الجلي أثره في كسب الدعوة للمؤيدين، والأنصار في مكة..

أرأيت كم من التضحيات في سبيل رسالة الله، بذل بيت علي (عليه السلام)؟

فإذا كان علي أول من لبى صوت الحق، وظل مجاهداً في الصف الأمامي من الجبهة الإسلامية طوال حياته، فإن أباه قد ضحى حتى بمكانته الاجتماعية التي كان يحظى بها من لدن قريش، وذاق المحن من أجل رسالة الله تعالى، حتى كان بحق الدرع الواقي للرسول (صلى الله عليه وآله)، والدعوة في حين كانت المكانة الاجتماعية: حلم الرجال، ومبتغاهم في ذلك المجتمع القبلي..

وهكذا كان جعفر بن أبي طالب، أخو علي (عليه السلام) الذي دشن حياته الإسلامية بقيادة موكب الهجرة الأولى إلى الحبشة وتوجهاً بالشهادة في غزوة مؤتة.. ففاز بلقب الطيار مع الملائكة في الجنة كما أخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك(١١)..

ولعظيم حب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لجعفر، إنه حين قدم المدينة المنورة من الحبشة، وذلك يوم فتح خيبر، استقبله الرسول (صلى الله عليه وآله) وقبل ما بين عينيه، وهو يقول (صلى الله عليه وآله): «ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدوم جعفر؟ أم بفتح خيبر»(١٢).

إلى دار الإسلام:

.. وفي خضم الصراع العنيف، الناشب بين الدعوة الإلهية المباركة، والجاهلية الرعناء، فجع الإسلام بفقد مؤمن قريش: أبي طالب (رض) فاهتز رسول الله (صلى الله عليه وآله) للحادث الأليم، وعلم أن قريشاً ستعمل على تصعيد حملتها على الدعوة، وعلى شخصه الكريم بالذات..

وإذا كانت قريش تخش أبا طالب، ومركزه الاجتماعي، فيما مضى، فقد صفا لها الجو بعد موته، وها هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) يفقد سنده الشامخ، ويصاب بعده بفاجعة أخرى، لا تقل في تأثيرها عليه عن الأولى، فقد توفيت زوجته الوفية خديجة، حتى دعا العام الذي فقدهما فيه «عام الحزن».

وللأهمية البالغة، التي يحتلها أبو طالب، في سير الحركة التاريخية لدعوة الله تعالى، صرح

رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله:

«ما زالت قريش كاعةً عني حتى مات أبو طالب»(١٣).

وصعدت قريش حملتها على رسول الله (صلى الله عليه وآله) والسابقين من المؤمنين، فاتحة رسول الله (صلى الله عليه وآله) للبحث عن أرض غير مكة، تستقر عليها دعوة الله، فتنمو عليها شجرة الهدى، وراح يتصل بالقبائل، ويعرض أمره على الناس في أطراف مكة... ثم زار الطائف، واتصل بزعماء قبائلها، فلم يستجب له أحد ذو أثر اجتماعي، بيد أن اليأس لم يتسرب إلى نفسه، واستمر في عرض نفسه على الناس من خارج مكة، حتى التقى في موسم الحج بنفر من أهل يثرب، وفاتحهم بأمر الدعوة، فاستجابوا له، ولبوا دعوة الله، وعادوا يحملون كلمة الله إلى قومهم.

وفي اليوم التالي قدم منهم اثنا عشر رجلاً، فبايعوه على الإيمان وحمل الرسالة، فأرسل لتعليمهم أحكام دين الله تعالى: مصعب ابن عمير، فمكث فيهم سنة كاملة، ويدعوهم إلى الله، ويؤدبهم بتعاليم رسالته، ويقرئهم القرآن الكريم فدخل الكثير من الناس في الإسلام، واستجابوا لنداء الدعوة المباركة..

وفي موسم الحج حضر منهم إلى مكة وفد كبير يقوده مصعب بن عمير، فالتقوا برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وبايعوه على النصرة أن هاجر هو إلى بلدهم..

وتنزل أمر الله تعالى يدعو المسلمين إلى الهجرة، فزحفت مواكب المهاجرين صوب الدار الجديدة مخلفين وراءهم المال والوطن وعلائق الدم والقربى.

ولئن كانت الدعوة قد أوشكت على الدخول في مرحلة جديدة من مراحل مسيرتها العتيدة، فإن قريشاً، قد اجتمعت في دار الندوة للتشاور بشأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالذات، فتوصل قادتها إلى قرار يقضي باغتيال جماعي لرسول لله (صلى الله عليه وآله) يتولاه من كل قبيلة رجل منها وأن ينفذ الاغتيال ليلاً.

وكشف جبريل (صلى الله عليه وآله) لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أوراق الجريمة التي أجمعت قريش على اقترافها.

(وَإِذْ يمْكُرُ بِكَ الّذينَ كَفَرُوا ليُثْبتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرينَ) (الأنفال/ ٣٠).

في فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله):

وأبلغ جبريل (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأمر الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة.. وحين انتشر الظلام، أسرع المتآمرون لتطويق بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) للحيلولة دون خروجه.. وعندها جاء دور علي (عليه السلام) حيث أمره رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن ينام على فراشه، ويلتحف ببردته، وخرج صلى الله عليه وآله من بينهم وهو يتلو قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ) (يس/ ٩).

فلم يشاهده أحد من المشركين:

وعند طلوع الفجر اقتحم المتآمرون دار رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتنفيذ جريمتهم واتجهوا لغرفته، فوثب علي (عليه السلام) في وجوههم قائلاً: ما شأنكم؟

قالوا: أين محمد؟

قال «أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا فقد خرج عنكم..»(١٤).

فانقلبوا خاسرين وباؤوا بالفشل الذريع... ثم بدا لهم أن يبحثوا عن الرسول (صلى الله عليه وآله) ويجدوا في طلبه في الجبال والوديان، واصطحبوا لذلك أبا كرز، وهو رجل شهير بعلم معرفة الأثر، وبالفعل استطاع أبو كرز أن يتابع أثر الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى أوصل القوم غار جبل «ثور» مؤكداً لهم أن محمداً (صلى الله عليه وآله) قد وصل في نهاية شوطه إلى ذلك الغار، وإذن فلا بد أن يكون قد عرج إلى السماء أو اختفى تحت الأرض، وحيث أن الله سبحانه قد بعث عنكبوتاً فنسجت بيتاً لها على باب الغار، فإن المتآمرين لم يخطر ببالهم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) في داخل الغار الذي يقفون على بابه، وهكذا صرف الله عقولهم فولوا الأدبار..

وعند حلول الليلة الثانية أسرع علي (عليه السلام) وهند بن أبي هالة إلى الغار للاتصال بالرسول (صلى الله عليه وآله) تحت جنح الظلام(١٥) وتحاور رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع علي (عليه السلام) حول مستلزمات الهجرة.. فأوصاه بأداء الأمانات إلى أهلها، وباللحوق به (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك وأوصاه أن يحمل معه فاطمة الزهراء (صلى الله عليه وآله) ومن معها من نساء أهل البيت..

الانتظار في قبا:

وبعد أيام من مسيرة الركب وصل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى «قبا» حيث نزل عند كلثوم بن الهدم أحد زعماء بني عمرو بن عوف(١٦) وهناك أقام الرسول (صلى الله عليه وآله) مسجد قبا، ومكث ينتظر قدوم علي بن أبي طالب (عليه السلام)(١٧).

إذ كتب إليه كتاباً يأمره بالمسير إليه، وقد حمل الكتاب أبو وافد الليثي، وحيث أن علياً (عليه السلام) قد أدى ما أوصاه به رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل هجرته وأعاد الأمانات التي كانت لدى الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى أهلها، فقد عجل باللحوق بأخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فبادر إلى إعداد ركائب لحمل النساء فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.

ثم أمر ضعاف المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى وخرج هو والفواطم وأيمن وأبو وافد الليثي نهاراً(١٨).

ولم تمض غير أيام قليلة حتى وصل ركب علي والفواطم إلى قبا، فاستقبلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعانق علياً (صلى الله عليه وآله) وبكى رحمة به – وذلك لما ألم به من إرهاق وأذى.

وبعد مقدم علي (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيومين ارتحل الرسول (صلى الله عليه وآله) وبصحبته علي (عليه السلام) ومن معه من المهاجرين إلى المدينة المنورة..

وكان الركب النبوي يستقبل استقبالاً مهيباً عند كل حي يمر به.. حتى إذا وصل الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى المكان الذي أقيم مسجده فيه توقفت راحلته عن المسير فنزل عنها، وأقام ضيفاً عند أيوب الأنصاري (ره).. ثم بادر إلى بناء المسجد والدور الخاصة به وبأهل بيته، وفي طليعتهم علي (عليه السلام) إذ أقيمت حجرته بجنب حجرة عائشة.

١ - إضافة إلى كتب التاريخ التي تصرح بأن علياً أول الناس إسلاماً فهناك عدة أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تجسد هذه الحقيقة. راجع المستدرك ج٣ ص١٣٦ والخطيب

البغدادي في تاريخه ج٢ ص٨١ ومناقب الخوارزمي وحلية الأولياء ج١ ص٦٦ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٨٥ وسيرة زيني دحلان في هامش الحلبية ج١ ص١٨٨: نقلاً عن الغدير ج٣ ص٢٢ - ٢٤٢ ط٣/ ١٩٦٧ بيروت.

٢ - يراجع كتابنا/ سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) ط بيروت.

٣ - ج١ ص٢٥٩ مصطفى الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وجماعة.

٤ - الروضة من كتاب الكافي ج٨ حديث إسلام علي (عليه السلام) وهناك أحاديث بهذا الصدد يرويها كل من النسائي وابن ماجة والحاكم والطبري في تاريخه والرياض النضرة ج٢ ص١٥٨ وكتاب صفين لنصر بن مزاحم ص١٠٠ وغيرها راجع ٢٢١ - ٢٤٠ ج٣ من الغدير، على أن تلك الروايات تشير إلى أن إيمان علي وعبادته قد سبق فيها الناس بسبع أو تسع سنين، وهي لا تخالف القول بثلاث سنين أبداً فإن المراد بأنه سبق بالتصديق بالإسلام بعد الدعوة بثلاث سنين وسبق سواه بالإيمان والتعبد مع الرسول (صلى الله عليه وآله) في مرحلة الأعداد التي أشار إليها في خطبة القاصعة بسنوات أخرى..

٥ - أخرج الحديث كل من: ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، وأبي نعيم، والبيهقي في سننه وفي دلائله، والثعلبي، والطبري في تفسيرهما لسورة الشعراء من تفسيريهما الكبيرين، وأخرجه الطبري في تاريخ السيرة الحلبية ج١ ص٣٨١، والطحاوي، والضياء المقدسي في مختاره، وأحمد بن حنبل ج١ ص١١١ وص١٥٩، والنسائي في خصائصه ص٦، وكنز العمال ج٦ الحديث رقم ٦٠٠٨، والمفيد في إرشاده في مناقب علي (عليه السلام) وغير هؤلاء كثير وكلهم أوردوه بألفاظ متقاربة نقلاً عن المراجعات للسيد شرف الدين ص١٢٤ وما بعدها.

٦ - صور من حياة محمد/ أمين دويدار ص١٤٠، وفقه السيرة/ للغزالي ص١٠٢ - ١٠٣، يراجع الهامش أعلاه.

٧ - صور من حياة محمد/ أمين دويدار ص١٤٠، وفقه السيرة/ للغزالي ص١٠٢ - ١٠٣، يراجع هامش رقم (١) ص٢٢ من هذا الكتاب.

٨ - يراجع القسم الأول من كتاب سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) ط بيروت للمؤلف.

٩ - المصدر السابق - يراجع القسم الأول أيضاً.

١٠ - بحار الأنوار ج١٩ باب دخول الشعب، طبقات ابن سعد ج١ ص١٧٣، ١٩٢، سيرة ابن هشام ج١ ص٣٩٩ - ٤٠٤ وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٥١، تاريخ ابن كثير ج٣ ص٨٤، ٩٦، ٩٧، السيرة الحلبية ج١ ص٣٥٧ - ٣٦٧ الكامل لابن الأثير/٢ ص٣٦.. نقلاً عن الغدير ج٧ ص٣٦٣ - ٣٦٦.

١١ - بحار الأنوار ج٢١ باب غزوة مؤتة، ابن سعد في طبقاته ج٤ ص٢٣، وأسد الغابة ج١ ص٢٨٧، ابن أبي الحديد ج٣ ص٤٠٧، البداية والنهاية ج٤ ص٢٥٦، الاستيعاب ج١ ص٨١، نقلاً عن مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني باب ذكر مقتل جعفر بن أبي طالب ص١٠ وما بعدها ط٢/ ١٩٧٠.

١٢ - نفس المصدر السابق.

١٣ - تأريخ الطبري ج٢ ص٢٢٢: تأريخ ابن عساكر ج١ ص٢٨٤، مستدرك الحاكم ج٢ ص٦٢٢، تأريخ ابن كثير ج٣ ص١٢٢: «نقلاً عن الغدير ج٧ ص٣٧٦»، كشف الغمة في معرفة الأئمة ج١ ص١٦... وغيرها.

١٤ - تفسير سورة الأنفال آية ٣٠ يراجع الميزان ج٩ بحث روائي ص٨٠.

١٥ - أعيان الشيعة ج٣ ط٣ ص١٥٥.

١٦ - بحار الأنوار ج٩ والروضة من الكافي ج٨ ص٣٣٩، للكليني ط/ طهران.

١٧ - الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ ابن الصباغ المالكي «فصل في شيء من شجاعته ص٢٨».

١٨ - أعيان الشيعة ج٣ ط٣ ص١٥٥ «هجرته إلى المدينة».

الإمام الخليفة

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أجمعت الأمة على بيعة الإمام علي (عليه السلام) خليفة لها، وقد اجتاحت النفوس موجة من العاطفة نحوه، ولكنه رد الأمة بقوله: «.. دعوني والتمسوا غيري»(١).

إن علياً أبى أن يكون أسيراً للعاطفة، فلعل نقمة بعض الناس على عثمان هي التي أججت نحوه العاطفة وشدت إليه التيار، وهو يريد من الأمة إقراراً إرادياً لإمامته...

ثم أن علياً ليس ممن تغريه المناصب وتستهويه الكراسي حتى يستجيب فور إقبال الناس عليه، فإن الأمرة كلها لا تساوي لديه جناح بعوضة. بل الدنيا كلها عنده كعفطة عنز –على حد تعبير له– والقيادة لا تساوي عنده شيئاً مذكوراً، إن لم يقم من خلالها الحق ويبطل الباطل.

ولهذا لم يستجب لضغط الجمهور في بادئ الأمر، قبل وضعهم أمام اختبار ليتأكد من مدى قدرة الناس على تلقي مناهجه والاستجابة لخططه إذا تسلم زمام الأمر.

فبالرغم من أن العاصمة المقدسة «المدينة المنورة» قد أصرت على اختياره على شكل تظاهرات حقيقية وتجمعات مكثفة حتى صارت المطالبة بقيادته إجماعية ولا جماعية، فإنه (عليه السلام) بقي عند موقفه المتريث، بيد أن إصرار الأمة على بيعته جعلته يطرح عليها شروطه لقبول الخلافة، فإن بايعته الأمة وفقاً لما يملي من شروط استجاب هو لمطلبها في استخلافه...

وحين أذاع بيانه المتضمن لشروطه «.. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب..»(٢).

سارعت الأمة مذعنة لشروطه، ومدت يد البيعة على الطاعة إليه، فلبى مطلبها ليواجه مسؤولياته القيادة في الأمة الإسلامية على الصعيد الفكري والعملي...

وقد كانت من أولى مهامه (عليه السلام) أن يزيل صور الانحراف التي طرأت على الحياة الإسلامية، وأن يعود بالأمة إلى أصالة المنهج الإلهي.

ومن أجل ذلك كان لابد أن يسير وفق منهاج محدد وشامل يلزم ولاته بتطبيقه... وقد انصب منهاج حكومته على مواجهة المشاكل في الميادين الآتية.

١ - الميدان السياسي:

لقد حدد الإمام (عليه السلام) مواصفات ولاة الأمر وموظفي الدولة الذين يرشحهم الإسلام لإدارة شؤون الأمة الإسلامية ببيان أصدره (عليه السلام) جاء فيه:

«.. أنه لا ينبغي أن يكون الوالي علي الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ وماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة..»(٣).

في ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات كادر الموظفين الذين يقرهم الإسلام عمد الإمام علي (عليه السلام) إلى الاستغناء عن خدمات قسم من الولاة الذين كانوا يتولون أقاليم الدولة الإسلامية.. لأن علياً (عليه السلام) لو ساوم –كما يريد بعض المؤرخين– لتعذر على الأجيال المسلمة التماس الصورة الحقيقية للشريعة التي أبعث الله بها رسوله العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - الميدان الاقتصادي:

كما عمد الإمام علي (عليه السلام) إلى إصلاح الوضع السياسي والإداري كذلك فعل بالنسبة للوضع الاقتصادي فقد بادر فور تسلمه زمام الأمور مباشرة إلى إلغاء طريقة توزيع المال التي اعتمدت فيما سبق.

فقد استبدل الإمام طريقة التمييز في العطاء بطريقة المساواة في التوزيع التي مارسها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فألغى الإمام (عليه السلام) كل أشكال التمييز في توزيع المال على الناس، مؤكداً أن التقوى والسابقية في الإسلام والجهاد، والصحبة للرسول (صلى الله عليه وآله) أمور لا تمنح أصحابها مراتب أو مميزات في الدنيا، وإنما لتلك المزايا ثوابها عند الله في الآخرة، ومن كان له قدم في ذلك، فالله تعالى يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فإن الناس سواسية في الحقوق المالية وأمام القضاء الإسلامي وفي الواجبات والتكاليف.

وقد تضمن بيانه التالي هذه الأفكار الجليلة العادلة: «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على سواه لصحبته فإن الفضل النيّر غداً عند الله وثوابه وأجره على الله..

وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار..»(٤).

وهكذا جسد الإمام (عليه السلام) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية دون تمييز لأي سبب من الأسباب.

هذه بعض ملامح العملية الإصلاحية التي قادها الإمام علي (عليه السلام) في شتى مرافق الحياة الإسلامية، في المال والحكم والإدارة وسواها.

١ - نهج البلاغة ص١٣٦، تبويب الدكتور صبحي الصالح.

٢ - المصدر السابق والصفحة ذاتها.

٣ - نهج البلاغة رقم ١٣١ تبويب صبحي الصالح.

نهمته: شهوته الشديدة وحرصه المفرط.

الحائف: الجائر، الظالم.

الدول: المال، والحائف للدول معناه الذي يظلم في توزيع الأموال فيفضل جماعة على أخرى.

المقاطع: الحدود التي حددها الله تعالى.

٤ - شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ج١ ص٢٦٩.

شخصية علي (عليه السلام) من خلال عناصرها الأساسية

إذا كانت حصيلة الإعداد الإلهي المباشر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) إن صار خلقه (صلى الله عليه وآله) القرآن بكل ما فيه من فضائل وقيم روحية رفيعة مجسداً حياً في دنيا الواقع(١)، فإن حصيلة الإعداد الرسالي من لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) أن صار علي (عليه السلام) صورة للرسول (صلى الله عليه وآله) فكراً وهدياً ومواقف..

ولقد قرأنا بين ثنايا النصوص الكريمة التي مرت بنا خلال هذه الدراسة(٢): تلك النصوص التي تكشف بقوة عما لعلي (عليه السلام) من مكانة في دنيا الإسلام.

فهو: المطهر من الرجس، وهارون الأمة، والذي كفه ككف النبي المصطفى، في العدل، وهو رفيق الحق لا ينفك أحدهما من الآخر وهو باب العلم الإلهي، وفاروق الأمة(٣) و...و.. الخ.

وكل هذه الأوسمة التي زين بها الإسلام صدر علي (عليه السلام) كانت ذات مداليل عملية في دنيا الواقع في حياة علي (عليه السلام).

فهذه الصفات السامية جاءت ترجمة لواقع صار إليه الإمام (عليه السلام) كثمرة للإعداد الرسولي له منذ نعومة أظفاره حتى آخر يوم من أيام المصطفى (صلى الله عليه وآله).

ولعلنا لا ندرك أهمية تلك الأوسمة التي زين بها صدر الإمام (عليه السلام) ما لم نسلط بعضاً من الضوء على المقومات العامة لشخصيته سلام الله عليه في هذه الصفحات:

١ - يراجع القسم الثالث من سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) للمؤلف.

٢ - راجع القسم الأول من هذه الدراسة التي بين يديك.

٣ - فاروق الأمة رواه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) الطبراني والبيهقي وكنز العمال وسواهم نقلاً عن المراجعات ص١٧٠.

مهمات ما بعد الهجرة

استقبلت المدينة عهداً جديداً من تاريخها بوصول رسول الله (صلى الله عليه وآله) إليها حتى أرسى (صلى الله عليه وآله) قواعد دولة القرآن، وعمل على تحصينها لتكون مناراً يشع نور الحق إلى الآفاق فيبدد ظلام الجاهلية الحالك..

وإذا كانت الدعوة بعد الهجرة قد امتلكت دولة وفرت لها الكثير من شروط الحماية والتحصين، فإن ذلك لا يعني بحال أن مكر الأعداء وخططهم لإطفاء نور الإسلام قد انتهى بل العكس هو الذي كان، فالجاهلية بقواها المتعددة وواجهاتها الكثيرة قد أجمعت على حرب الإسلام ودولة الإسلام، وقد دخلت فصائل كثيرة إلى الميدان لغير صالح الإسلام، بعد أن أدركت عملياً أن وجودها في خطر بعد امتلاك الإسلام الدولة التي ترعاه ويحقق أهدافه من خلالها..

وهكذا كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد وضعت المسلمين أمام مسؤوليات أشمل ميداناً وأبعد خطراً، حيث بناء الدولة وحمايتها وبناء المجتمع وترصينه، وصد الأعداء ونشر العقيدة وغير ذلك..

والصراع بطبيعته قد تحول بدوره من صراع أفراد أو إرهاب

قبائل، وأصحاب وجاهات لأفراد عزل لا يملكون غير دينهم وثقتهم بالله تعالى.. إلى صراع عسكري منظم بين قوى جمعتها المصالح والأهواء ولو آنياً لحرب الإسلام العظيم باعتباره – وبتقديرهم– الخطر الماحق لوجودهم الفكري والعملي.. وقد تفجر الصراع العسكري بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

وحسبك أن دولة القرآن قد شهدت عبر عشر سنوات عاشها الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد هجرته إلى المدينة عشرات من الأعمال العسكرية بين حروب دفاعية أو هجومية أو غزوات أو سرايا أو غيرها.. قدم المسلمون خلالها الكثير من الضحايا ولاقوا صنوفاً من البلاء بيد أنهم أنهوا الوجود العملي للجاهلية العربية.. فشملت دولة الإسلام الجزيرة العربية دون منازع..

وإذا تتبعنا تلك المرحلة الدقيقة من عمر الرسالة الخاتمة لوجدنا أن دور علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيها لم يرق إليه دور قط.. فهو في جميع حروب الإسلام مع أعدائه كان يفوز بقصب السبق لا من باب اشتراكه في الحرب أو قتاله فيها، وإنما بما قدمه من بطولة وتضحية يسبق بها

سواه ومن المناسب هنا أن نذكر طرفاً من بطولته (عليه السلام):

بأس في الحرب

١ - في معركة بدر:

كان عدد المسلمين يساوي ثلث جيش عدوهم وكانت العدة لدى المسلمين ليست ذات بال فعلى سبيل المثال كانوا لقلة ركائبهم يركب منهم الاثنان والثلاثة والأربعة على بعير واحد، ولم يكن منهم فارس غير المقداد بن الأسود الكندي، وكانت أسلحة بعضهم من جريد النخل ونحوه..

حتى إذا اضطرمت نار الفتنة تقدم علي (عليه السلام) وكان يحمل لواء الرسول (صلى الله عليه وآله)(١) فخاض غمار معركة حامية غير متكافئة، كان المسلمون خلالها يستغيثون ربهم طلباً للنصر فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة، وقد انتهت المعركة بمقتل سبعين رجلاً من المشركين كان مقتل حوالي نصف عددهم بسيف علي(٢).

٢ - وفي معركة أحد:

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد أعطى لواء المهاجرين لعلي (عليه السلام) ولما اشتبك الطرفان كان النصر ابتداءً للمسلمين، بيد أن حماة جبل أحد الذين أمرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) بعدم مفارقته تركوا أماكنهم بعد فرار المشركين بدافع الطمع في الغنائم، فصعدت إحدى فرق المشركين بقيادة خالد بن الوليد الجبل فتغير الموقف لصالح المشركين فخسر المسلمون الكثير من الشهداء.. وأصيب الرسول (صلى الله عليه وآله) بجروح في وجهه الكريم وكسرت رباعيته وحيث لم يبق مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذلك الموقف الرهيب بعد فرار المسلمين غير علي (عليه السلام) وأبي دجانة وسهل بن حنيف استبسل علي (عليه السلام) كعادته في الدفاع عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومجد الرسالة الإلهية، وقتل حملة اللواء من المشركين واحداً بعد الآخر، وكانوا تسعة رجال ثمانية من بني عبد الدار وتاسعهم عبدهم(٣).

مما أربك العدو واضطره للفرار.

٣ - وفي غزوة الأحزاب:

طوقت المدينة بعشرة آلاف من المشركين بشتى فصائلهم، ونقض بنو قريظة صلحهم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانضموا إلى صفوف الغزاة، فتغير ميزان القوى لصالح العدو، وبلغ الذعر في نفوس المسلمين أيما مبلغ، فقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزلت نفوس وظنت نفوس بالله الظنونا –كما حدثنا القرآن(٤).

وبدأ العدو هجومه بعبور عمرو بن عبد ود العامري أحد أبطال الشرك الخندق مع بعض رجاله، فهددوا المسلمين في داخل المدينة بل في داخل تحصيناتهم.. وراح بن عبد ود يصول ويجول، ويتوعد المسلمين ويتفاخر عليهم ببطولته، ويستعلي وينادي:

هل من مبارز؟

فقام علي (على) وقال: أنا له يا رسول الله.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اجلس إنه عمرو!

وكرر ابن عبد ود النداء وجعل يوبخ المسلمين، ويسخر بهم يقول: أين جنتكم التي تزعمون، أن من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟

ولما لم يجبه أحد من المسلمين، كرر علي (علي) طلبه: أنا له يا رسول الله.

فقال (صلى الله عليه وآله): اجلس إنه عمرو!

فأبدى علي عدم اكتراثه بعمرو وغيره، قائلاً: وإن كان عمرو!!

فأذن رسول الله لعلي (عليه السلام) وأعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه، وعممه بعمامته..

ثم قال (صلى الله عليه وآله) «اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين»(٥).

ومضى علي (عليه السلام) إلى الميدان، وخاطب ابن عبد ودّ بقوله: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله، أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا قبلتها..

قال عمرو: أجل.

فقال علي (عليه السلام) فإني أدعوك إلى الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) وإلى الإسلام.

فقال: لا حاجة لي بذلك.

قال له الإمام: فإني أدعوك إلى البراز.

فقال عمرو: إني أكره أن أهرق دمك، وإن أباك كان صديقاً لي..

فرد عليه الإمام (عليه السلام) قائلاً: لكني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو، وبدأ الهجوم على علي (عليه السلام) فصده الإمام برباطة جأشه المعتاد، وأرداه قتيلاً، فعلا التكبير، والتهليل في صفوف المسلمين(٦)..

ولما عاد الإمام (عليه السلام) ظافراً استقبله رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يقول «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ، أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة»(٧).

وبعد مقتل ابن عبد ودّ بادر علي (عليه السلام) إلى سد الثغرة التي عبر منها عمرو ورجاله الخندق ورابط عندها(٨) مزمعاً القضاء على كل من تسول له نفسه العبور، ولولا ذلك الموقف البطولي لاقتحم جيش المشركين المدينة على المسلمين، بذلك العدد الهائل.

وهكذا كانت بطولة علي (عليه السلام) في غزوة الأحزاب أهم عناصر النصر للمعسكر الإسلامي، وانهزام المشركين.

٤ - وفي غزوة خيبر:

عجز عليه القوم عن الصمود أمام اليهود، ولما بأن ضعف الجميع عن اقتحام حصون خيبر حتى تأخر فتحها أياماً قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه..»(٩).

ولما كان الغد أعطاها علياً فاقتحم حصون خيبر ودخلها عليهم عنوة، وقتل بطلهم مرحباً ثم فتح الحصون جميعاً..

٥ - غزوة حنين:

فرّ المسلمون فلم يبق مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) غير علي (عليه السلام)(١٠).

والعباس وبعض أهل البيت (عليهم السلام) فكان النصر بعد عودة المسلمين لميدان القتال.. وكان الظفر..

هذه صور يسيرة من مواقف الصمود التي سجلها الإمام علي (عليه السلام) بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) القائد في أدق الساعات وأكثرها حرجاً(١١).

ومن نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان أن علياً (عليه السلام) قد اشترك في حروب رسول الله جميعاً غير تبوك(١٢) وذلك بأمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) بذاته، وكان له في جميعها القدح المعلى، هذا عدا الغزوات التي قادها بنفسه عليه السلام.

والباحث المنصف حين يتناول حياة الإمام علي (عليه السلام) بالدراسة وفي شطرها الجهادي بالذات يقف مذهولاً أمام بطولته الفريدة وتضحياته المعطاءة، لكن البطولة بما هي بطولة ليست هي الميزة في جهاد علي (عليه السلام) وإن كان ميدانها الواسع وشمولها يبقى سمة من سمات علي ولكن الأهم فيها إنما هو الإخلاص لله تعالى والتضحية في سبيله.

فإيمان علي (عليه السلام) بالله تعالى يبقى هو الحافز والمحرك لتلك البطولات العظيمة التي سجلها تاريخ الإسلام في أنصع صفحاته بشكل لم يسجل مثلها سواه.

وحسبك في ذلك أن كثيراً من المواقف العسكرية – كما رأينا– يعترض فيها عليه القوم فضلاً عن عامتهم للهون بل والهزيمة النكراء غير أن التاريخ لم يسجل لعلي (عليه السلام) إلا الصمود والفداء والتضحية في كل موقف، صمد الناس فيه أم انهزموا، الأمر الذي لا يفسره إلا ما يتمتع به علي (عليه السلام) من صدق اليقين وعمق الاستعانة والتوكل على الله والعبودية له واللامبالاة بما سواه كبر ذلك أم صغر.

هذا عدا ما يتمتع به علي (عليه السلام) من علو الهمة وقوة العزيمة ورباطة الجأش وسمو النفس.

١ - أحمد بن يحيى البلاذري في أنساب الأشراف ج٢ ص٩١ و ٩٤ ط/١ سنة ١٩٧٤ بيروت/ ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١١١/ وابن سعد في الطبقات ج٣ ص١٥.

٢ - حياة أمير المؤمنين/ محمد صادق الصدر ط٢ سنة ١٩٧٢ ص٢٣٠.

٣ - تاريخ الطبري ج٣ ص١٧ وأحمد بن حنبل في الفضائل وابن هشام في السيرة النبوية ج٣ ص ٥٢ ودلائل الصدق/ الشيخ محمد حسن الظفر ج٢ ص٣٥٧ ط قم. وحياة أمير المؤمنين/ السيد الصدر ص٢٣٦ وما بعدها والإرشاد للمفيد ص٥٢.

٤ - تراجع سورة الأحزاب ١٠.

٥ - السيرة النبوية / أحمد زيني دحلان ج٢ ص٦ و ٧ «غزوة الخندق».

٦ - المصدر السابق.

٧ - مستدرك الصحيحين ٣ ص٣٢ عن سفيان الثوري ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج٣ ص١٩: نقلاً عن فضائل الخمسة ج١.

٨ - السيرة النبوية لدحلان/ ٢ ص٦ و٧«غزوة الخندق» أو إرشاد المفيد ص٥٨.

٩ - أنساب الأشراف ج٢ ص٩٣ و٩٤ عن أبي هريرة وابن عباس بلفظ متشابه/ وخصائص علي بن أبي طالب للنسائي ص٩ وما بعدها الطبعة الأولى ١٩٧٥ بيروت وفي الإصابة والاستيعاب وحلية الأولياء ومسلم في الصحيح بألفاظ متقاربة.

١٠ - سيرة الرسول للسيد محسن الأمين نقلاً عن السيرة الحلبية وابن قتيبة في المعارف، وتفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج١٠ (تفسير) آية ٢٥ من التوبة والبحث الروائي والإرشاد للمفيد «غزوة حنين» ص٨١.

١١ - للاستزادة يراجع كتاب الإمام علي/ عبد الفتاح عبد المقصود وأعيان الشيعة المجلد الثالث/ للسيد محسن الأمين والإرشاد للشيخ المفيد وسيرة ابن هاشم والفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي.

١٢ - راجع أنساب الأشراف للبلاذري ج٢ ص٩٢ ط١ ١٩٧٤، (ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١١١ وابن سعد في طبقاته ج٣ ص١٠ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج٣ ص٤٧٥) نقلاً عن فضائل الخمسة لمعرفة المزيد من المصادر ج٢ ص٣٠٩.

منهاج الإصلاح

وضع الإمام (عليه السلام) خطته الإصلاحية الشاملة، وقد انصب جل اهتمام الإمام (عليه السلام) على إصلاح شؤون الإدارة والاقتصاد والحكم كما قدمنا.

ومن خلال ذلك العمل الإصلاحي الكبير حظيت الأمة عبر مسيرتها الجديدة التي اختطها لها أمير المؤمنين (عليه السلام)، بمعطيات جمة ذات مردودات عظيمة لصالح الأمة والمسيرة بشكل عام، نذكر منها ما يلي:

أولاً: استعانة الإمام (عليه السلام) بجهاز من الولاة والموظفين لإدارة دفة الحياة الإسلامية يعدّ أفراده نموذجاً في مستواهم الروحي والفكري والالتزامي: كعثمان بن حنيف، ومحمد بن أبي بكر، ومالك الأشتر وسواهم.

على أن تلك النماذج الخيرة من الرجال، وإن كانوا في مستوى لائق في الفكر والعمل والقدرة الإدارية والقيادية، إلا أن الإمام (عليه السلام) قد زودهم بخط هادية ومناهج راشدة، يهتدون بها في حياتهم العملية، وفي علاقاتهم مع مختلف قطاعات الأمة التي يباشرون قيادتها.

فهو يلزم ولاته بالنصح لعباد الله، وإشاعة العدل بينهم ومعاملتهم باللين والحب، والتجاوز عن كل مظاهر الاستعلاء التي يعري بها المنصب غالباً والحيلولة دون تأثير ذوي النفوذ الاجتماعي في مسيرة العدالة الإسلامية على حساب القطاعات الاجتماعية الأخرى، ونحو ذلك من مستلزمات إشاعة العدل وإقامة الحق بين الناس.

وهذه نماذج من خططه في هذا المضمار:

«.. فأخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعذب فأنتم أظلم، وأن يعف فهو أكرم..»(١).

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشياطين، واعلم إن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»(٢).

هذه صورة من توجيهات الإمام (عليه السلام) التي ألزم ولاته بالعمل على ضوئها في حياتهم العملية.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الإمام (عليه السلام) بالرغم من اهتمامه بانتقاء العناصر الكفوءة والورعة فإنه كان يحرص على الإحاطة بأساليبهم في معاملة الأمة من خلال مراكزهم القيادية باستعانته بجهاز من الرقباء والعيون ليرى مدى طاعة الولاة وتنفيذهم لقواعد العدالة الإسلامية، فإذا بدا من أحدهم خطأ أو تقصير، بادر الإمام إلى تقويم سلوكه بالوسائل التربوية تارة وبالتهديد أو بالعزل إذا لزم الأمر، وهذه نماذج من وسائله تلك:

فقد بلغه أن عثمان بن حنيف (رض) واليه على البصرة دعاه بعض شخصيات أهل البصرة إلى مأدبة، فخشي الإمام (عليه السلام) أن تستميله تلك الوسائل أو سواها فينحرف عن خط العدالة الإسلامية المرسوم فيميل في أحكامه أو يجور في قضائه ومعاملته للأمة، فكتب إليه كتاباً جاء فيه: «أما بعد، يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم، عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقتضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه، فالفظهُ وما أيقنت بطيب وجوهه، فنل منه..

ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد..»(٣).

وقد كتب إلى مصقلة الشيباني عامله على (أردشير خرّة) مهدداً ومتوعداً (بلغني عنك أمر أن كنت فعلته، فقد أسخطت إلهك وعصيت إمامك: إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً، ولتخفَّنَّ عندي ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تطمح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً»(٤).

وكتب إلى أحد عماله يقول: «أما بعد فقد بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك، بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فأرفع إليَّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس..»(٥).

وكما كان الإمام (عليه السلام) يخطط للولاة ويزودهم بنصائحه الهادية، كان يرسم الخطط كذلك لقادة جيوشه، ويوضح لهم معالم الطريق، وما ينبغي عليهم فعله عند مواجهة العدو.

فكان (عليه السلام) ينهاهم عن البغي، ويأمرهم بعدم إثارة الحرب من جانبهم، وإنما ينبغي التسلح بالصبر وضبط النفس، وأن يكونوا في بداية المواجهة كما لو كانوا مدافعين فحسب، فإذا اعتدى عليهم فقد قامت الحجة لصد العدوان، فإذا قدر وانتصروا على عدوهم فلا يباح أن تحملهم نشوة الظفر على عدوهم إلى ملاحقة جنوده الهاربين من القتال، أو الذي لا يملك منهم سلاحاً يدافع به عن نفسه، كما لا يجوز قتل الجرحى، أو الإساءة إلى النساء، وإن بدأن الإساءة بسب أو شتم أو نحوه.

وهذه بعض وصاياه (عليه السلام) لجيوشه:

«.. لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة وتركهم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً(٦) ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم..»(٧).

«.. ألا وإن لكم عندي ألا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أوخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، وألا تنكصوا عن دعوة ولا تفرطوا في صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق..»(٨).

وبالنظر للأهمية البالغة التي يحتلها جهاز جباية الأموال في الدولة الإسلامية حيث تشكل الحقوق العامة في ملكية الأفراد عنصراً هاماً من عناصر الاقتصاد الإسلامي، فإن حق الجماعة في الملكيات الخاصة يوفر ضمانة كبرى لمساعدة الدولة الإسلامية على تغطية نفقاتها الكبرى على الصعيد الاجتماعي والعسكري وغيرهما من جوانب الحياة العامة.. أقول بالنظر لأهمية جهاز الجباية هذا فقد أولاه الإمام (عليه السلام) عناية فائقة لا من أجل أن يجمع أكبر نصيب من المال أبداً، وإنما من أجل أن ينخرط –ذلك الجهاز– في مسيرة العدالة الإسلامية المثلى التي جسدها الإمام (عليه السلام) في حياة الناس.. فكان الإمام حريصاً على أن يلتزم موظفوا ذلك الجهاز بأقصى درجات العدل والفضيلة والنبل، والشعور بالمسؤولية فليست مهمتهم في نظر الإمام (عليه السلام) أن يجمعوا المال من أجل المال، وإنما ينبغي عليهم ان يلتزموا الحق في

تعاملهم مع الأمة وان يعكسوا عدالة الإسلام لمن يلتقون بهم من الناس، فلا ينبغي أن يغضبوا أحداً من الناس، ولا يسيؤوا معاملة أحد، ولا يضربوا إنساناً من أجل درهم مثلاً، ولا يجوز أن يعتدوا على مال امرئ من المسلمين أو من غيرهم ممن يتمتع بحق التابعية للدولة الإسلامية.

كما لا يجوز أبداً أن يبيعوا كسوة إنسان أو دابته من أجل استيفاء المال، ولا يحق لأحد الجباة أن يردع أحداً أو يستوفي أكثر من حق الله في ماله، ولا ينبغي أن يستعلي على الناس أو يبخل عليهم بالتحية أو اللطف والمرونة في معاملتهم إلى غير ذلك من وصاياه (عليه السلام).

وهذه صور من مناهجه في هذا المضمار:

«.. فإنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة ولا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعُنَّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً، ولا تضربنَّ أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تمسَّنَّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهد..»(٩).

«.. انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعَنَّ مسلماً ولا تجتازنَّ عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج(١٠) بالتحية لهم. ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل الله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه..؟»(١١).

ثانياً: تجسيد المخطط الإسلامي للعدالة الاجتماعية بأجلى صورة وأدق تفصيلاته.

إذا كانت جميع جوانب الجهاز الحكومي في الدولة الإسلامية قد تناولتها يد الإصلاح، فحققت أرقى النماذج التي يصبو إليها الإنسان، فإن الإمام (عليه السلام) قد خطا في سبيل تحقيق أفضل صورة للعدالة الاجتماعية وفقاً للتصورات الإسلامية التفصيلية.

فقد شهد المجتمع الإسلامي بجميع قطاعاته وقواه عدالة رائدة كالتي شهدها أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله) في منطلقاتها وأبعادها.

وفيما يلي شواهد من تلك التجربة التاريخية المشعة التي تفيأت الأمة ظلالها:

أ - رفق وتعاهد:

فقد شهدت قطاعات الأمة جميعاً صوراً من التعاهد لأمرها والرفق بها ورعاية شؤونها،

والتسوية في العطاء بين جميع حملة التابعية للدولة الإسلامية التي تجسدها هذه النصوص:

«المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحد على أحد».

«وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً»(١٢).

أقول إلى جانب هذا وذاك، شهدت الأمة التي قادها أمير المؤمنين (عليه السلام) بمختلف قطاعاتها من ألوان التدبير لشؤونها، والرعاية لأمورها، والحدب عليها ما حقق لها القوة والسعادة وهذه صور منها:

عن الحكَم قال:

«شهدت علياً، وأتى له بزقاق من عسل، فدعا اليتامى وقال: ذوقوا، والعقوا، حتى تمنيت أني يتيم، فقسمه بين الناس وبقي منه زق، فأمر أن يسقاه أهل المسجد»(١٣).

وعن هارون بن عنترة عن زاذان قال: انطلقت مع قنبر غلام علي (عليه السلام) فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئاً.

قال (عليه السلام): وما هو، ويحك!!

قال: قم معي..

فقام فانطلق به إلى بيته، وإذا بغرارة مملوءة ما جامات ذهباً وفضة، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلا قسمته فادخرت لك هذا من بيت المال.

فقال علي (عليه السلام): ويحك يا قنبر، لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة ثم سلَّ سيفه، وضربها ضربات كثيرة، فانتثرت.. ثم دعا بالناس، فقال: اقسموه بالحصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت إبراً ومسال فقال: ولتقسموا هذا..»(١٤).

وعن الحكَم قال: إن عليا قسم فيهم الرمّان حتى أصاب مسجدهم سبع رمانات، وقال: أيها الناس أنه يأتينا أشياء نستكثرها إذا رأيناها، ونستقلها إذا قسمناها، وإنا قد قسمنا كل شيء أتانا.

قال: وأتته صفائح فضة فكسرها، وقسمها بيننا.

وعن علي بن ربيعة قال: جاء ابن التياح إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء.

فقال علي: الله أكبر، ثم قام متوكئاً على يد ابن التياح، فدخل بيت المال وهو يقول:

هذا جناي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه(١٥).

ثم نودي في الناس، فأعطى – علي – جميع ما في بيت المال وهو يقول: «يا بيضاء، ويا صفراء، غري غيري».

حتى لم يبق فيه درهم ولا دينار، ثم أمر بنضحه، فصلى فيه ركعتين (عليه السلام).

وكان لشدة حرص الإمام (عليه السلام) على الأمة لرفع غائلة الفقر والظلم عنها أنه التزم السير –عبر أيام خلافته عليها– وفقاً للنهج الآتي: «.. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى؟

أأقنع من نفسي بأن يقال هذا: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟»(١٦).

رقابة دقيقة لوضع السوق:

ولقد كان الإمام علي (عليه السلام) حريصاً على تجسيد العدالة الاقتصادية في كافة مرافق الحياة الإنسانية ومن أجل ذلك فقد التزم خطة لمراقبة السوق من ناحية البيع والشراء وطبيعة ما يعرض للبيع، للحيلولة دون التطفيف في المكاييل والتلاعب بالأسعار أو الغش، فعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال «كان أمير المؤمنين (عليه السلام) كل بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرة على عاتقه، وكان لها طرفان، وكانت تسمى السبيبة، فيقف على سوق فينادي:

يا معشر التجار قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا بالحلم، وتناهوا عن الكذب، واليمين، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا و«أوفوا المكيال والميزان

بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين»(١٧).

وعن أبي النوار قال:

رأيت علياً (عليه السلام) وقف على خياط، فقال له: يا خياط صلّب الخيط، ودقق الدرز، وقارب

الغرز، فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول «يؤتى يوم القيامة بالخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاطه، وخان فيه، فيفتضح على رؤوس الأشهاد».

ثم قال: «يا خياط إياك والفضلات والسقطات فإن صاحب الثوب أحق بها..»(١٨).

هكذا جسد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) المخطط الإسلامي للعدالة الاجتماعية بأدق صورها، وهكذا عامل الأمة بالرفق والحب فعاش آمالها وآلامها حتى قطفت أروع ثمارات العدل في تاريخها كما كانت في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سواء بسواء.

ج- حياته المتواضعة:

تبيين الإمام علي (عليه السلام) سياسة نكران الذات لصالح الأمة وذلك بالزهد الصادق بكل ما يطمع به الطامعون من مال وملذات وزخرف، فلقد عاش أمير المؤمنين في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه فقراء الأمة، وكان يأكل الشعير تطحنه امرأته أو يطحنه بيده سواء في ذلك قبل خلافته، وبعدها:

وكان يلبس أخشن لباس وأبسطه وكان مبدؤه الثابت في هذا المضمار:

«.. ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه»، «فوالله، ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهن من عفصة مقرة»(١٩).

وبمقدورنا أن نلمس سياسة الإمام (عليه السلام) هذه مع نفسه من خلال المصاديق التالية:

عن هارون بن عنترة عن أبيه قال:

دخلت على علي بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك!!

فقال (عليه السلام) والله ما أرزؤكم –أنقصكم– شيئاً، وما هي إلاّ قطيفتي التي أخرجتها من المدينة»(٢٠).

وقد خاطبه عاصم بن زياد يوماً بقوله: (يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!).

فأجابه علي (عليه السلام):

«ويحك إني لست كأنت. إن الله تعـــالى فرض على أئمـــة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلـــاً يتبيَّغ بالفقير فقرة»(٢١).

وعن سويد بن غفلة قال دخلت على علي (عليه السلام) يوماً وليس في داره سوى حصير رث وهو جالس عليه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال، وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير؟

قال (عليه السلام): يا سويد إن البيت لا يتأثث في دار النقلة وأمامنا دار المقامة، وقد نقلنا إليها متاعنا، ونحن منقلبون إليها عن قريب(٢٢).

وها هو علي يخرج سيفه ليبيعه في السوق كي يشتري بثمنه أزاراً، وهو أمير المؤمنين وزعيم الأمة الإسلامية الذي تجبى إليه الأموال من جميع بقاع العالم الإسلامي.

فعن أبي رجاء قال: أخرج علي (عليه السلام) سيفاً إلى السوق فقال: «من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس علي بيده لو كان عندي ثمن إزار ما بعته!!!

فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأنـسوك ثمنه إلى عـــطائك، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاءه دفع إلـــيّ ثمن الإزار(٢٣).

إنه (عليه السلام) لا يأخذ من فيئهم شيئاً، وإن قدَّر له الخروج من بلدهم، فلا يخرج إلا بالذي جاء به من المدينة المنورة: راحلته ورحله وغلامه.

فعن بكر بن عيسى قال: كان علي (عليه السلام) يقول: «يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي، ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن».

فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت.

ولشدة حرصه (عليه السلام) على سلوك سبيل رسول الله (صلى الله عليه وآله) في عدله وزهده أشار عقبة بن علقمة قال دخلت على علي (عليه السلام) فإذا بين يديه لبن حامض، آذنتني حموضته، وكسر يابس.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟

فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا، وأشار إلى

ثيابه، فإن أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألاّ ألحق به(٢٤).

ولعظيم إيثاره للأمة على نفسه ما رواه عبد الله بن الحسين بن الحسن (عليهم السلام) قال:

أعتق علي (عليه السلام) في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف مملوك مما عملت يداه، وعرق جبينه.

ولقد ولي الخلافة، وأتته الأموال فما كان حلواه إلاّ التمر ولا ثيابه إلاّ الكرابيس(٢٥).

وعن سفيان الثوري عن عمر بن قيس قال: رؤي عن علي (عليه السلام) إزار مرقوع، فعوتب في ذلك، فقال:

«يخشع له القلب، ويقتدي به المؤمن»(٢٦).

ولقد بلغ في شدة زهده (عليه السلام) ونكرانه لذاته ابتغاء لوجه الله تعالى ما يتجلى عبر عبارته «.. والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قيل لي: إلا تستبدل بها غيرها؟ فقلت للقائل: «ويحك أعزب، فعند الصباح يحمد القوم السري»(٢٧).

هذه بعض بنود منهاج علي (عليه السلام) مع نفسه وهي تمثل إحدى روافد العدالة الإسلامية التي جسدها الإمام علي (عليه السلام) في دنيا الناس أسوة برسول الله (صلى الله عليه وآله).

د - مساواة أهل بيته بسائر الناس:

أما منهاج أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي سلكه في أهل بيته وقرابته فلم يكن بعيداً عن منهاجه مع نفسه إلاّ من حيث الدرجة، فقد كان مبنياً على أساس مساواتهم بالأمة في الحقوق والواجبات، بل إن الذي يتحملونه من مهام من أجل حماية الرسالة والمسيرة أكثر بكثير مما ينالون من حقوق...

كان الإمام (عليه السلام) حريصاً على معاملة ذويه في مسألة الحقوق كما لو كانوا من عامة الناس، فلا يفضلهم بعطاء، ولا يميزهم بحق، فلقد سلكَ معهم أسلوب التدريب والإعداد للعمل بمنهاجه معهم، بل كان يبدو شديداً مع بعضهم من أجل أن ينتهج الخط الذي رسمه الإمام (عليه السلام) لمتعلقيه وأهل قرابته.

وهاك صوراً من منهاجه ذلك:

قال مسلم صاحب الحنا:

«لما فرغ علي (عليه السلام) من أهل الجمل أتى الكوفة، ودخل بيت المال، ثم قال: يا مال غرَّ غيري، ثم قسمه بيننا، ثم جاءت ابنة للحسن أو للحسين (عليهما السلام) فتناولت منه شيئاً، فسعى ورائها ففك يدها ونزعه منها، فقلنا: يا أمير المؤمنين إن لها فيه حقاً، قال (عليه السلام) إذا أخذ أبوها حقه فليعطها ما شاء»(٢٨).

وروى هارون بن سعيد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي (عليه السلام): يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أن نفقة، فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي!!

فقال الإمام (عليه السلام) لا والله، ما أجد لك شيئاً إلاّ أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك..(٢٩).

وقد جاءه أخوه عقيل –وكان ضريراً– يوماً يطلب صاعاً من القمح من بيت مال المسلمين – زيادة على حقه– وظل يكرر طلبه على علي (عليه السلام) فما كان من الإمام أمير المؤمنين إلا وأحمى له حديدة على النار وأدناها منه، ففزع منها عقيل ثم وعظه (يا عقيل أتئن من حديدة أحماها أنسانها للعبة وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى..)(٣٠).

وعن أبي صادق عن علي (عليه السلام): إنه تزوج ليلى، فجعلت له حجلة، فهتكها، وقال: حسب آل علي ما هم فيه.

وعن الحسن بن صالح بن حي قال:

- بلغني أن علياً تزوج امرأة فنجّدت –زينت– له بيتاً، فأبى أن يدخله(٣١).

وعن كلاب بن علي العامري قال:

زفت عمتي إلى علي (عليه السلام) على حمار بأكاف تحتها قطيفة، وخلفها قفه معلقة(٣٢)!!

هكذا كان منهاج علي (عليه السلام) مع أهل بيته وذوي قرابته لا يفرط من أجلهم بحق من حقوق المسلمين، بل يعمل كان ما من شأنه على رفع مستواهم باتجاه مبادئه في الزهد، ونكران الذات في سبيل الله تعالى، ولصالح مجموع الأمة.

ولقد كان منهجه واضحاً كل الوضوح لا لبس فيه ولا غموض ولا يخضع لعاطفة أو مساومة أبداً «.. والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الإغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها..»(٣٣).

وهذا السبيل الذي اختاره الإمام (عليه السلام) إنما يمثل أحد مصاديق العدل الاجتماعي الشامل الذي حرص أمير المؤمنين (عليه السلام) على تجسيده واقعاً حياً في دنيا الناس.

١ - من عهده (عليه السلام) إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، نهج البلاغة ص٣٨٣

تبويب د. صبحي الصالح.

آس: ساو بينهم. حيفك لهم: ظلمك من أجلهم.

٢ - وصيته إلى عبد الله بن عباس حين استخلفه على البصرة نهج البلاغة، د. صبحي الصالح رقم ٧٦.

سع الناس: أشملهم برعايتك في كل جانب من جوانب الحياة.

طيرة: طيش وخفة.

٣ - نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ص٤١٦.

مأدبة طعام: طعام دعوة أو عرس.

يستطاب لك: يطلب لك طيبها.

الألوان: أصناف الطعام.

الجفان: جمع جفنة وهي القصعة.

العائل: المحتاج.

المجفو: مطرود (من الجفاء)

قضم: أكل بطرف أسنانه.

المقضم: المأكل.

الفظه: اطرحه، لا تأكله.

الطمر: الثوب البالي.

طعمه: ما يطعمه ويفطر عليه.

قرص: رغيف خبز.

السداد: الإحتراز من الخطأ.

٤ ـ المرجع السابق ص٤١٥ أعتمامك: اختارك وأصله أخذ العيمة: وهي خيار المال.

٥ ـ المرجع السابق ص٤١٢ جردت الأرض: إشارة إلى الخيانة بتخريب الأراضي.

٦ ـ المعور: الذي عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب.

٧ ـ نهج البلاغة، وصيته (عليه السلام) رقم ١٤ ص٣٧٣، د. صبحي الصالح.

٨ ـ نفس المصدر من كتاب له إلى أمراء جيشه رقم ٥٠ ص٤٢٤.

٩ ـ نهج البلاغة من كتاب له إلى أعماله على الخراج رقم ٥١ تبويب د. صبحي الصالح.

١٠ ـ لا تخدج بالتحية : لا تبخل بالسلام عليهم والسؤال عن أحوالهم.

١١ ـ نهج البلاغة كتاب لمن يستعمله على الصدقات رقم ٢٥.

١٢ ـ روائع نهج البلاغة : جورج جرداق ص١٦٣.

الخزامة : حلقة من شعر توضع في وترة أنف البعير يشد بها زمامه ويسهل قياده.

١٣ ـ أنساب الأشراف للبلاذري ج٢ ص١٣٦.

١٤ ـ شرح النهج تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ ١٣٩٧٨ هـ ج١، ص١٩٨ و١٩٩.

١٥ ـ مثل يضرب، أراد به الإمام (عليه السلام) أنه لم يصب شيئاً من مال المسلمين بل وضعه في مواضعه. تذكره.

الخواص: سبط انب الجوزي ص١١٧.

١٦ ـ نهج البلاغة من كتاب له إلى عثمان بن حنيف رقم ٤٥ ص٤١٨.

١٧ ـ من سورة هود/ ٨٥، راجع بحار الأنوار ج٤١ ص١٠٤ من آمالي الصدوق وتذكرة الخواص ص١٣٤ وأنساب الأشراف للبلاذري ج٢ ص١٢٩ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

١٨ ـ تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص١٢٥.

١٩ ـ كتابه لعثمان بن حنيف نهج البلاغة رقم النص٤٥، التبر: فتات الذهب والفضة قبل الصياغة.

الوفر: المال الطمر: الثوب الخلق البالي. أتان دبرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها.

٢٠ ـ تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص١٢١ وعبقرية الإمام للعقاد ص١٦ ط. بيروت ١٩٦٧.

٢١ ـ نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح رقم ٢٠٩ ص٣٢٤.

يتبيغ: يستبد به ألم الفقر.

٢٢ - تذكرة الخواص ص٦٨.

٢٣ - شرح في نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٠٠.

٢٤ - المرجع السابق ص٢٠١.

٢٥ - نفس المرجع ص٢٠٢.

٢٦ - تذكرة الخواص ص١٢١.

٢٧ - المرجع السابق ص١٢٥. المدرعة: ثوب صوفي غليظ.

٢٨ - أنساب الأشراف ج٢ ص١٣٢.

٢٩ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٠٠.

٣٠ - بحار الأنوار ج٤٠ باب ٩٨ ومناقب آل أبي طالب ج١ في المسابقة بالزهد.

حجلة: ستر يضرب للعروس في الليل.

٣١ - نفس المصدر.

٣٢ - نفس المصدر.

أكاف: كساء يوضع على ظهر الدابة، الفقه: إناء من خوص النخل.

٣٣ - نهج البلاغة رقم النص ٢٢٤.

علاقة الإمام علي بالله تعالى

سبق أن أشرنا في حديثنا عن شخصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أن علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى، ليست محدودة في إحدى زوايا حياته أبداً، وإنما هي كما حدد الله سبحانه أبعادها لعباده من خلال شريعته التي ارتضى لهم: تجرد كامل للعزيز المتعال عز وجل بكل خلجات النفس، وبكل حركة في الحياة: في الصلاة والصيام والحج والاعتكاف، بشعائر التعبد وبالعلاقات الأسرية والاجتماعية عامة بالحكم والقضاء بالمحيا والممات وما بعد الموت(١).

وقد جسد القرآن الكريم حجم العلاقة بين العبد وربه الأعلى بقوله تعالى: (قُل إِنّ صلاتي ونُسُكي وَمَحْياي وَمَمَاتي لله رَبِّ العالَمين) (الأنعام/ ١٦٢).

على أن شعائر الإسلام الكبرى: كالصلاة والصوم والحج وسواها وإن كانت جزءاً من هيكل العبودية لله تعالى التي تشمل الحياة الإنسانية كلها. إلا أن هذه الشعائر تختص بسمات خاصة «توقيفية» ككيفية الأداء والوقت والعدد، فهي في هذه المجالات محددة من قبل الله تبارك وتعالى فلا مجال فيها لتبديل أو تحوير أو نقص أو زيادة.

ثم إنها تمتاز في كونها وقفات خالصة لله سبحانه ليس فيها غايات أخرى غير رضوان الله والاستجابة لأمره، ومن أجل ذلك تفقد هذه الفرائض طابعها العبادي إذا دخل إطارها رياء أو نحوه.

وهي ميزة لا تتحقق في أمور الحياة الإنسانية الأخرى وإن كانت سابحة في إطار من العبودية لله تعالى.

فالزواج والنشاط الاقتصادي مثلاً ونحوهما من العقود وإن كانت شريعة الله تعالى تضعها في مسار العبودية لله، والمرء من خلالها يؤدي عبادة إذا هو التزم بأحكام الشريعة الإسلامية في تحديد وجهتها وأبعادها ومستلزماتها إلا أنها تبقى حاملة لأغراض أخرى فالزواج مثلاً إن كان يحقق غاية إسلامية من ناحية تحصين الفرد المسلم عن الوقوع في المحرم، حتى أن الإسلام يعتبر عملية الزواج من لدن المسلم إحرازاً لنصف الدين –كما في الحديث الشريف– كما أن الالزام بأحكام الشريعة الخاصة في حقول التعامل بين الزوجين ونحوها يعتبر أمراً مفروضاً على

المؤمنين..

أقول إلى جانب هذه الأمور التي ترافق عملية الزواج، فإن الميل يبقى خلفية أساسية من خلفيات حمل الفرد على تعاطيه.

وهكذا تظهر خلفيات أخرى غير الخلفية العبادية في مثل هذه الأمور..

ومن هنا نرى أن أمر الزواج والنشاطات الاقتصادية في مثالنا أمور توجد في كل مجتمع في الماضي والحاضر، قبل عصر التنزيل وبعده بالنظر لارتكازها على حاجات طبيعية لدى الكائن الإنساني، ومهمة شريعة الله تعالى ترتكز على إضفاء الصبغة الشرعية عليها بعد تهذيبها وتحديد مسارها ووضع مخطط إسلامي لصوغها وفقاً لمتطلبات الفطرة البشرية.

وبناء على هذا التحديد لطبيعة علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى فسنستعرض علاقة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالله تعالى من خلال الفرائض والسنن الإسلامية.

١ - القسم الثالث من سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) للمؤلف.

علي في منظار الإسلام

لم يحظ رجل في الإسلام ما حظي به علي بن أبي طالب (عليه السلام) من ثناء وإجلال من لدن الرسالة الإسلامية، وحثها المتزايد لاتباعها لا على تقديره فحسب، وإنما على التزامه، وانتهاج سبيله.

وقد انطوى القرآن الكريم والسنة الشريفة والتاريخ الصحيح على نصوص وروايات تنطق كلها بالثناء على علي (عليه السلام).

فمرة تأتي كأوسمة يضعها الإسلام على صدره فيميزه.

ومرة على شكل أحكام وأوامر تلزم المسلمين على التزام علي (صلى الله عليه وآله) إماماً ومنهجاً. فمن أوسمة التقدير التي نالها علي (عليه السلام) من الله تعالى ومن رسوله (صلى الله عليه وآله). نذكر ما يلي:

١ - (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) (الأحزاب–٣٣).

وذهب المفسرون لهذه الآية أنها نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله)

وعلي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (عليهم السلام) حين دعا الرسول (صلى الله عليه وآله) بعباءة وجللهم بها، ولها نزلت الآية قالت أم سلمة زوجة الرسول (صلى الله عليه وآله):

هل أنا من أهل بيتك؟

قال: لا ولكنك على خير(١).

٢ - (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاوَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجعَلْ لَعنَةَ اللهِ عَلَى الكاذِبِينَ) (آل عمران/٦١).

ذكر أهل التفسير من جميع المسلمين أنها نزلت حين خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلته، فدفعوا الجزية خضوعاً منهم لسلطان دولته (صلى الله عليه وآله)(٢).

٣ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبهِ مِسكيناً وَيَتِيماً وأَسِيراً. إنَما نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً

وَلاَ شكُوراً. إنَا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً. فَوَقيهُم اللهُ شَرَّ ذلِكَ اليَوْمِ وَلقّيهُمْ نَضرَةً وَسُرُوراً) (الدهر/ ٨–١١).

وهذه بإجماع أهل التفسير نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام).

وكان ذلك عندما مرض الحسنان فنذر علي (عليه السلام) وفاطمة وفضة إن شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء وفضة يصومون لله تعالى ثلاثة أيام.

وبعد شفاء الحسنين صام أهل البيت (عليهم السلام).

وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه..

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير فقدموا له طعامهم وهكذا بقي أهل البيت (عليهم السلام) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الكريمة إعظاماً لشأنهم وإكباراً لعملهم(٣) ليكونوا القدوة وليكونوا المثال.

٤ - (أَجَعَلتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ باللهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَجَاهَد فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتوونَ عِنْدَ اللهِ والله لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ) (التوبة/ ١٩).

نزلت هذه الآية عندما تفاخر طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب: إذ قال طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي!

وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها وفي هذه الأثناء مرّ عليّ بهما وسألهما: بم يفتخران. فذكرا له مقالاً.

فقال علي (عليه السلام): أنا أوتيت منذ صغري ما لم تأتيا.

فقالا وما ذاك؟

فقال (عليه السلام): لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله تعالى الآية المذكورة في الثناء على ما افتخر به علي (عليه السلام)(٤).

وإذا كان القرآن الكريم يثني هذا الثناء الجميل على علي (عليه السلام) فتعال معي إلى السنة الشريفة لنقرأ شيئاً منها في هذا الصدد:

١ ـ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنا مدينة العلم وعلي بابها(٥).

٢ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»(٦).

٣ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): مخاطباً علياً (عليه السلام) «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»(٧).

٤ ـ وقال (صلى الله عليه وآله) يوم المواخاة ــبين المهاجرين والأنصار مخاطباً علياً (عليه السلام): «أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيهما بعدك إلا كذاب»(٨).

هذه طائفة من النصوص الخاصة بالثناء على علي (عليه السلام) ومن شاء المزيد فليراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة وينابيع المودة ومسند أحمد بن حنبل وفضائل أمير المؤمنين وأمانته من دلائل الصدق وغيرها.

أما النصوص القاضية بوجوب التزام علي (عليه السلام) إماماً وقائداً في دنيا المسلمين فنذكر منها ما يلي:

من فضائل الأمام علي (عليه السلام):

(إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللهُ وَرَسُولُه وَالَّذِينَ أَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمون الصَلوةَ ويؤتُونَ الزَّكوَةَ وهُم رَاكِعُونَ) (المائدة/ ٥٥).

قال المفسرون إن الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام)(٩) فأكدت وجوب الالتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً واجتماعياً وسياسياً للأمة، وقد كان سبب نزولها حين تصدق علي (عليه السلام) على مسكين بخاتمه أثناء ركوعه، فالآية إنما نزلت بهذا الصدد وهي تؤكد في ذات الوقت إمامة علي (عليه السلام)

خطبة الغدير:

وهي البيان الذي وجهه الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى المسلمين في غدير خم في آخر حجة له لبيت الله، فعن البراء بن عازب قال:

«أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فآمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟.

قالوا: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟

قالوا: بلى.

قال (صلى الله عليه وآله): «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»(١٠) وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»(١١).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»(١٢).

وفي حديث آخر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) يخاطب به عمار بن ياسر (ر٥) جاء فيه «.. وإن سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فأسلك وادياً سلكه علي وخلّ الناس طراً..»(١٣).

وقال (صلى الله عليه وآله):

«لكل نبي وصي ووارث وأن علياً وصي ووارثي»(١٤).

هذا غيض من فيض من النصوص الإسلامية الموثوقة المجمع على صحتها، ووثاقتها من جميع المسلمين(١٥).

١ - راجع صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٤٧ والبيهقي في سنة ج٢ ص١٤٩ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذي ج٢ ص٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج٢ ص٢٩٧ وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص٢٢٤ وما بعدها.

٢ - صحيح الترمذي ج٢ ص٣٠٠ وأحمد بن حنبل في المسند ج١ ص١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة والزمخشري في كشافه والفخر الرازي في تفسير الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ص٢٤٤ وما بعدها.

٣ - يراجع الزمخشري في كشافة ج٢/ والواحدي في أسباب النزول/ ومجمع البيان للطبرسي في تفسير سورة الدهر/ والحافظ محمد بن جرير الطبري كما في الكفاية/ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج/٣ ص٤٢ - ٤٧/ والحاكم النيسابوري ذكره في مناقب فاطمة (عليها السلام) كما في الكفاية/ وأبو إسحاق التغلبي في تفسيره «الكشف والبيان»/ والألوسي في روح المعاني/ والطبري في الرياض النضرة ج٢ ص٢٠٧/ نقلاً عن الغدير للشيخ الأميني ج٣ ص١٠٧ - ١١١.

٤ - تفسير الطبري عن أنس ج١٠ ص٥٩/ وأسباب النزول للواحدي ص١٨٢/ والقرطبي في تفسيره ج٨ ص٩١/ والرازي في تفسيره ج٤ ص٤٢٢/ والخازن في تفسيره ج٣ ص٢٢١/ وأبو البركات النسفي ج٢ ص٢٢١/ والدر المنثور للسيوطي ج٣ ص٢١٨/ وغيرهم مع اختلاف في التفاصيل والألفاظ.

٥ - مستدرك الصحيحين ج٣ ص١٢٦/ ومناقب أحمد بن حنبل وأبو عيسى الترمذي في جامعة الصحيح/ وكنز العمال ج٦ ص٤٠١/ وأسد الغابة ج٤ ص٢٢/ والخطيب البغدادي في تاريخه ج٤ ص٣٤٨: نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص٢٥٠ وما بعدها.

٦ - مسند أحمد بن حنبل ج١ ص١٧٤/ ومسند أبي داود ج٢ ص٢٨ والبخاري في باب غزوة تبوك ومسلم الترمذي وغير هؤلاء نقلاً عن المراجعات ص١٣٣ - ص١٣٦.

٧ - صحيح الترمذي ج٢ ص٢٢٩/ وأحمد بن حنبل ج٦ ص٢٩٢/ والنسائي ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١٢٩ وغيرهم راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص٢٠٧ وغيره.

٨ - صحيح ابن ماجة وصحيح الترمذي ج٢ ص٢٩٩/ والنسائي في الخصائص ص٣ و١٨ ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١٤/ ومسند أحمد بن حنبل ج١ ص١٥٩ وغيرها مع اختلاف في الألفاظ يسير.

٩ - تفسير البيضاوي/ ومجمع البيان للطبرسي/ وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره/ والطبري في تفسيره ج٦ ص١٦٥/ والواحدي في أسباب النزول ص١٤٨/ والخازن في تفسير ج١ ص٤٩٦/ والرازي في تفسيره ج٣ ص٤٣١/ وأبو البركات النفسي ج١ ص٤٩٦/ والنيسابوري في تفسيره ج٣ ص٤٦١/ وابن حجر في الصواعق ص٢٥ وغيرها نقلاً عن: أعيان الشيعة ج٣ ق١ ص١٣٠ - ص١٣٤ وخلفاء الرسول الإثنا عشر ص١٠٣ وما بعدها.

١٠ - اللفظ لصحيح ابن ماجة ص١٢.

١١ - مسند ابن حنبل ج٤ ص٢٨١، فقد نص عليه قائلاً رواه ثلاثون صحابياً، وأخرجه أيضاً النسائي في خصائص علي ابن أبي طالب بعدة طرق والترمذي والطبراني/ عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وكنز العمال ج١ ص٤٨/ ومستدرك الصحيحين وسواهم. نقلاً عن كتاب الغدير تأليف العلامة الأميني - أمير ٥ - ج١.

١٢ - تاريخ البغدادي ج١٤ ص٣٢١/ والهيثمي في مجمعه ج٧ ص٢٣٥/ وكنز العمال ج٦ ص١٥٧/ وتفسير الرازي ج١ ص١١١/ وغيرهم مع اختلاف في الألفاظ. نقلاً عن علي والوصية ص١١٣.

١٣ - تاريخ الخطيب البغدادي ج١٣ ص١٨٦/ والهيثمي في مجمعه ج٧ ص٢٣٦ وكنز العمال ج٦ ص١٥٥ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

١٤ - ينابيع المودة سليمان الحنفي «باب عهد النبي لعلي وجعله وصياً» والذهبي في ميزان الاعتدال والسيوطي في اللئاليء والديلمي في كنوز الدقائق ومناقب أحمد بن حنبل وكنز العمال ج٦ ص١٥٤ والمعجم الكبير للطبراني والمحب الطبري في الذخائر وغيرهم نقلاً عن علي والوصية لنجم الدين العسكري ١٩٤.

١٥ - «ومن شاء المزيد فليراجع ينابيع المودة/ للشيخ القندوزي الحنفي والفصول المهمة لابن الضباع المالكي وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز أبادي ومسند أحمد بن حنبل وكتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين وعلي والوصية للشيخ نجم الدين العسكري وغيرها.

سياسة رد الفعل

وبسبب ما ألفه رجالات قريش من أثرة وامتيازات لا حصر لها فقد كبر عليهم أن ينهج الإمام (عليه السلام) نهج التسوية في الحقوق –كما أمر الله سبحانه.

فقد أنكر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله على الإمام (عليه السلام) سياسته تلك واعتبراها مخالفة للنهج الذي ألفه الناس.

فقال لهما الإمام (عليه السلام): ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟

قالا: إنك جعلت حقنا في القَسْم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا، وأخذنا قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً(١).

فقال الإمام علي (عليه السلام) لهما: لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إلى حد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته، أم أخطأت بابه؟

والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية أربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله، وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به، فاتبعته، وما استسن النبي (صلى الله عليه وآله)، فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وأخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما.

وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة –التسوية في العطاء– فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما في هذا عتبي، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر... رحم الله أمراً رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه..»(٢).

وهكذا تختلف المنطلقات والمفاهيم، ينطلق علي (عليه السلام) مما يأمر به الله تعالى ورسوله

(صلى الله عليه وآله) بينما تنطلق المعارضة مما توحي به مصالحها.

وشتان بين منطلق يرمي إلى تحقيق متطلبات الرسالة ومصلحة مجموع الأمة، ومنطلق مادي لا يرى غير المصلحة الذاتية.

موقف معاوية:

وما أن تناقلت الأنباء أمر استخلاف الإمام علي (عليه السلام) ونهوضه بأعباء قيادة الأمة إلا وفزع معاوية بن أبي سفيان معلناً معارضته.

وفي الأثناء ورد عليه كتاب من ابن العاص يطلعه على حقيقة الموقف في عاصمة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

«من عمرو بن العاص إلى معاوية ابن أبي سفيان: أما بعد، ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها..»(٣).

وها هو الإمام علي (عليه السلام) يكتب لمعاوية كتاباً يستقدمه فيه، بيد أنه لم يستجب للإمام (عليه السلام) بل ولم يرد على كتابه(٤).

وبعد مضي ثلاثة شهور على مقتل عثمان، وقيام الإمام علي (عليه السلام) بالأمر يشهر معاوية سلاح المطالبة بدم عثمان، متخذاً منه ذريعة للخروج على إمام زمانه.

وقد بدأت معارضته بنشر ثوب عثمان الدامي في مسجد دمشق وشعيرات من لحيته، وقد جمد عليها الدم، وراح يستشير أهل الشام للنهوض من أجل عثمان والانتقام ممن قتله، ومن ثم أرسل رسولاً إلى الإمام (عليه السلام) حتى إذا وصل الرسول إلى المدينة المنورة جعل يسير في دروبها، وهو يحمل صحيفة مختومة مكتوباً عليها من «معاوية إلى علي» وهو عنوان يثير الدهشة لدى الناس فهو خال من كل لياقة وكياسة، كما يشير إلى أن مرسله لا يحمل إلى زعيم المسلمين أي

شعور بالاحترام والتقدير.

وفض الإمام (عليه السلام) صحيفة معاوية، فوجدها بيضاء لا حرف فيها فسأل رسول معاوية: ما وراءك؟

قال بعد أن استأمن الإمام (عليه السلام): إني تركت ورائي أقواماً يقولون لا نرضى إلاّ بالقود.

قال الإمام (عليه السلام): ممن؟

قال: يقولون من خيط رقبة علي، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر مسجد دمشق، وأصابع زوجته نائلة معلقة فيه.

فقال الإمام: «أمني يطلبون دم عثمان، اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان..»(٥).

ثم أمر الإمام (عليه السلام) رسول الشام أن يغادر بعد أن منحه الأمان.

ومنذ ذلك التاريخ بادر الإمام (عليه السلام) بتجهيز جيشه لإخماد حركة البغاة التي قادها معاوية في الشام.

خلفيات المطالبة بدم عثمان:

ولنا أن نتساءل قبل أن نمضي في حديثنا قدماً، هل كانت الأطراف في كل من الشام والبصرة صادقة في ادّعاء المطالبة بدم الخليفة الثالث؟

وللإجابة على هذا السؤال الذي يفرض نفسه على الكاتب والقارئ معاً في هذه المسألة: لا بد من الرجوع إلى مواقف تلك الأطراف جميعاً أيام الثورة التي تمخض عنها مقتل عثمان.

فقد كان معاوية يعلم بتفاصيل ما يجري للخليفة في المدينة، وقد استغاث به الخليفة أيام الحصار فلم يغثه بشيء حتى أرسل معاوية جيشاً إلى المدينة بقيادة يزيد بن أسد القسري وقال له: «إذا أتيت ذا خُشُب –منطقة خارج المدينة– فأقم بها ولا تتجاوزها، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب)(٦).

فأقام القسري بجيشه في المكان الذي حدده معاوية، فلما قتل عثمان استدعى معاوية الجيش وقائده إلى الشام.

هذه بعض مواقف معاوية، من عثمان بن عفان أيام حكمه، ومن هنا شعار المطالبة بدم الخليفة القتيل من قبله كان مجرد وسيلة لاستدرار العطف وتجميع الأنصار: فدوافعه الحقيقية إنما تكمن في نقمته على سياسة علي (عليه السلام) الإصلاحية والتي كانت تمس مصالح بعض طبقات المجتمع بشكل أو بآخر.

وقد أفصح الإمام (عليه السلام) عن موقفه إزاء مقتل الخليفة عثمان بقوله: «اللهم إني أبرأ من دم عثمان، ما نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً بلغه»(٧).

ويتضح موقف الإمام (عليه السلام) كذلك من كتاب له إلى معاوية حيث جاء فيه «وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعة..»(٨).

موقف الأمام علي (عليه السلام) أيام الأزمة:

ومن الضروري جداً أن نشير ولو بشكل مقتضب إلى موقف الإمام (عليه السلام) أيام الأزمة التي تعرضت لها الخلافة في عهد عثمان:

فحين هاج الناس في عهد عثمان حاول الإمام (عليه السلام) أن يقنع الخليفة بضرورة الإصلاح، وجرى بينهما حديث بهذا الشأن، ومما نصح به الإمام (عليه السلام) الخليفة قوله:

«... وإني أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أمورها عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكوننّ لمروان سيّقة يسوقك حيث يشاء بعد جلال السن وتقضي العمر...»(٩).

فقال له عثمان: «كلّم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مضالمهم»(١٠).

فقال الإمام (عليه السلام): «ما كان بالمدينة، فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»(١١).

قال الخليفة: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

فخرج الإمام إلى الناس، وأخبرهم بما وعد به الخليفة، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً وأشهد عليه قوماً من وجوه المهاجرين والأنصار»(١٢).

وحيث لم يتيسر لعثمان أن يبرّ بوعده للناس تأزم الموقف مجدداً..

وقد زاد في حراجة الموقف عثور المصريين الثوار على بريد من عثمان إلى عامل مصر يأمره بعاقبة قادة الثائرين بالقتل(١٣) ومعاقبة كل متظلم بالسجن ونحو ذلك..

فحوصر الخليفة من قبل المهاجمين والطامعين في الخلافة معاً حتى قطع عنه الماء ـكما قدمناـ فاستنجد بالإمام علي (عليه السلام) فأسرع لإنقاذه وأرغم طلحة وسواه، وأدخل إليه الماء(١٤).

وبعد أن طال حصار الخليفة –أربعين يوماً– طلب بعض الناس من علي (عليه السلام) أن يصلي بهم، فأبى فتولى طلحة إمامة الصلاة..!

هذه بعض مواقف الإمام (عليه السلام) من أجل عثمان... وبالرغم من تلك المواقف النبيلة التي وقفها الإمـــام (عليه السلام) من أجل الخليـــفة فإنه لا يعني بحال أن الإمام (عليه السلام) كان راضياً عــن سياســة الخليفة في المـــال والإدارة(١٥).

بيد أن الإمام (عليه السلام) كان يرى في قتل عثمان خطراً يتهدد الأمة بالنظر لما يعقبه من تمزق في الصف الإسلامي، وتجرؤ من لدن المتربصين بالإسلام والمسلمين.

الأمر الذي وقع فعلاً بعد مقتل الخليفة مباشرة.

١ - علي بن أبي طالب - نظرة عصرية جديدة / تأليف د. محمد أحمد خلف الله وعدد من الكتاب ص٣٢.

٢ - نهج البلاغة رقم النص ٢٠٥ د. صبحي الصالح ط١ بيروت ١٩٦٧.

٣ - الإمام علي وفضائله ص١٧٥، دار مكتبة الحياة / بيروت.

٤ - الفصول المهمة/ لابن الصباغ المالكي ص٥٠ ويراجع نص كتاب الإمام (عليه السلام) في نهج البلاغة رقم ٧٥ تبويب د. صبح الصالح «باب الكتب» ص٤٦٤.

٥ - الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٥١.

٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١٦ ص١٥٤ «شرح كتاب الإمام (عليه السلام) إلى معاوية رقم ٣٧».

٧ - الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٥١.

٨ - شرح نهج البلاغة ج٣ ص٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٩ - نهج البلاغة/ تبويب د. صبحي الصالح ص٢٣٥ رقم ١٦٤.

١٠ - المصدر السابق.

١١ - المصدر السابق.

١٢ - الطبري وابن الأثير وغيرهما (نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين عائشة ص٩٨).

١٣ - الطبري وأنساب الأشراف والمعارف لابن قيبة وسواهم «نقلاً عن المصدر السابق ص٩٩».

١٤ - تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري «نقلاً عن المصدر السابق ص١١٣».

١٥ - شرح نهج البلاغة ج٩ ص٥ - ٦.

شواهد من عبادة أمير المؤمنين (عليه السلام)

كحصيلة للإعداد الرسالي الذي حظي به الإمام علي من لدن أستاذه الرسول (صلى الله عليه وآله) –الأمر الذي تناولناه في مدخل هذه الرسالة– فقد طبعت شخصية الإمام علي (عليه السلام) بشخصية المصطفى (صلى الله عليه وآله) في جميع مقوماتها: عبادةً وفكراً ومواقف. يسلك سبيله، يقتفي سنته ويقفو أثره، ومن أجدر بتجسيد سنة الرسول (صلى الله عليه وآله) كاملة في دنيا الواقع سوى علي (عليه السلام)؟ الذي صنع رسول الله (صلى الله عليه وآله) شخصيته وشكل جميع عناصرها وطبعها بالطابع الإلهي منذ نعومة أظفاره..

وإذ نعقد هذا الفصل للحديث عن عبادة الإمام (عليه السلام) ووسائل تعلقه بالله سبحانه، فسنعرض شواهد منها، لندرك السمو الشاهق الذي بلغه الإمام (عليه السلام) في مضمار الانشداد إلى الله واستلهام سنة الرسول (صلى الله عليه وآله) المطهرة في هذا المضمار:

صلاة وضراعة:

فكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع إلى الله سبحانه تعالى يشير عروة بن الزبير في حديث له عن أبي الدرداء:

قال: «شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات(١) النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات(٢) النخل، فافتقدته، وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله فإذا أنا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حملت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك.

إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال: «إلهي أفكر في عفوك، فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك، فتعظم علي بليتي».

ثم قال «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لاتنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى».

قال أبو الدرداء: ثم أمعن في البكاء، فلم أسمع له حسا، ولا حركة.

فقلت:غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر، فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

فقالت فاطمة (عليها السلام): يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟

فأخبرتها الخبر.

فقالت: «هي والله – يا أبا الدرداء – الغشية التي تأخذه من خشية الله»

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر إلي وأنا أبكي فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعى بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورفضني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».

فقال أبو الدرداء: «فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله» (صلى الله عليه وآله)(٣).

هذا شاهد من شواهد تعلق الإمام (عليه السلام) بالله تعالى وشدة انشداده إليه ورهبته منه.

ويبدو أن هذا ديدن علي (عليه السلام) كما يتجلى من قول الزهراء (عليها السلام) لأبي الدرداء: «هي والله الغشية التي تأخذه من خشية الله».

وهذه مزينة عند التوجه إلى الله تعالى في صلاته وضراعته، الأمر الذي ألفه أهل البيت (عليهم السلام) في علي (عليه السلام).

ومن أجل ذلك لم يفزعوا حين أنبأهم أبو الدرداء بموته –كما ظن هو– بل استفسروا عما رأى، فأعلمته الصديقة (عليها السلام) أن ما رآه هو المألوف من علي (عليه السلام) كل آن حين تأخذه الغشية لله تبارك وتعالى أثناء قيام الليل.

ولكثرة قيامه للعبادة ليلاً يحدثنا عبد الأعلى عن نوف البكالى..

قال: «بت ليلة عند أمير المؤمنين (عليه السلام) فكان يصلي الليل كله، ويخرج ساعة بعد ساعة، فينظر إلى السماء، ويتلو القرآن، فمر بي بعد هدوء من الليل فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟

قلت: بل رامق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم..»(٤).

وهكذا كان علي (عليه السلام) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء (عليهم السلام). أنه ترجمة صادقة لعبادة محمد (صلى الله عليه وآله) وزهد المسيح (عليه السلام).

أرأيت كيف يندك وجوده على عتبة الخضوع لله والاستكانة له وطلب رضوانه؟

وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف يروي لنا أبو يعلى –في المسند– عنه (عليه السلام) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: صلاة الليل نور..

فقال ابن الكواء: ولا ليلة الهرير!؟

قال (عليه السلام): ولا ليلة الهرير(٥).

توجه ورهبة:

ولعظيم إقباله على الله تعالى يشير القشيري في تفسيره:

أنه كان (عليه السلام) إذا حضر وقت الصلاة تلون وتزلزل. فقيل له: ما لك؟

فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان على ضعفه، فلا أدري أحسن إذا حملت أم لا(٦).

ولع بالصلاة:

ولكثرة صلاته ما ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال:

كان علي بن الحسين (عليه السلام) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، كما كان يفعل أمير

المؤمنين (عليه السلام)(٧).

وعن سليمان بن المغيرة عن أمه قالت: سألت أم سعيد سرية علي (عليه السلام) عن صلاة علي (عليه السلام) في شهر رمضان.

فقالت: رمضان وشوال سواء، يحيى الليل كله(٨).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «إن علياً في آخر عمره يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة»(٩).

عبادة الشاكرين:

ولقد عظم المعبود عز وجل في نفس الإمام (عليه السلام) فصارت عبادته تعبيراً عن الحب له والشوق إليه، واستشعار أهليته للعبادة دون سواه، ومن أجل ذلك كان علي (عليه السلام) لا يعبد الله خوفاً من عذابه، ولا طمعاً في جنته ولا فيما أعده من نعيم للمتقين، وإنما سما الإمام (عليه السلام) في علاقته بالله تعالى إلى أعلى الدرجات أسوة بأستاذه الرسول (صلى الله عليه وآله).

وقد كشف الإمام (عليه السلام) عن جوهر علاقته بالله تعالى وطبيعتها بقوله:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»(١٠).

فأعظم به من يقين، وأكرم به من إيمان!!

ولقد حدد الإمام (عليه السلام) ألوان العبادة في كلمة خالدة:

«أن قوماً عبدوا الله رغبةً، فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وأن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار»(١١).

وكانت عبادته (عليه السلام) من النوع الأخير، حيث تصدر كحصيلة للشعور بأهلية المعبود للعبادة واستحقاقه لها.

أما إيقاف العبادة على حصول الثواب فحسب، فهي عبادة من وصفهم الإمام (عليه السلام) بالتجار، الذين يبتغون الثمن وينتظرون التعويض..

وشتان بين هدف الشاكرين، وهدف التجار في ميزان الله تعالى وحسابه.

صلاة الرسول (صلى الله عليه وآله):

ولقد كانت صلاة علي (عليه السلام) –أسوة بسائر نشاطاته– كصلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كيفية الأداء والخشوع والانشداد والتعلق بالله تعالى فعن مطرف بن عبد الله قال: صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب.. فلما انصرفنا أخذ عمران بيد فقال: لقد صلى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد (صلى الله عليه وآله)(١٢).

تعاهدوا أمر الصلاة:

وإلى جانب تعاهد الإمام (عليه السلام) لأمر الصلاة فقد كان كثيراً ما يوصي أتباعه بتعاهد أمرها، وأدائها في أوقاتها وتعريفهم بأهميتها وأثرها في شخصية المسلم «تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها فإنها -كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً-» ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا «ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين».

وإنها لتحت الذنوب حتّ(١٣) الورق، وتطلقها إطلاق الربق(١٤) وشبهها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالحمة(١٥)، تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمسة مرات، فما عسى أن يبقى عليه من درن(١٦)؟

وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرة عين من ولد ولا مال.

يقول الله سبحانه:

(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) (النور/ ٣٧).

«فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه»(١٧).

١ - الشوحط: شجر يتخذ منه القسي.

٢ - المغيلات: النخل الوارف الظلال.

٣ - بحار الأنوار ج٤١ ص١١ - ١٢ نقلاً عن أمالي الصدوق والأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي ط٢ ص١١٥ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٨٩.

٤ - نفس المصدر ص١٦ عن الخصال للصدوق ونهج البلاغة باب الحكم رقم ١٠٤ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

٥ - البحار ج٤١ ص١٧. ليلة الهرير : من ليالي صفين الحاسمة التي اشتبك الفريقان فيها طوال الليل دون هوادة.

٦ - نفس المصدر ص١٧.

٧ - نفس المصدر ص١٥.

٨ - نفس المصدر السابق ص ١٧.

٩ - نفس المصدر ص٢٣ أشار إلى أنه عليه السلام مع تقدم سنه بقي ملتزماً بمنهجه في العبادة والإكثار في الصلاة.

١٠ - بحار الأنوار ج٤١ ص١٤ وتذكرة الخواص لبسط ابن الجوزي ص١٤٤.

١١ - المصدر المتقدم.

١٢ - أنساب الأشراف ج٢ ص١٨٠ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ نقلاً عن البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

١٣ - حتّ الورق عن الشجر: قشره.

١٤ - الربق: حبل فيه عدة عرى كل واحدة ربقة.

١٥ - الحمة: عين ماء حار يستشفى فيها من المرض.

١٦ - الدرن: الوسخ.

١٧ - نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح ص١٩٩.

فهرس القسم الأول

علي (عليه السلام) في عهد الخلفاء

... فاضت نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حجر علي (عليه السلام)(١) ورحل (صلى الله عليه وآله) إلى ربه الأعلى، وهو قلق على مستقبل الرسالة والأمة، كما يجسد ذلك بقوة قوله (صلى الله عليه وآله) عند زيارته لقبور المؤمنين في البقيع في بداية مرضه الذي قضى فيه «السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه، مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها..»(٢).

وتأكيده المستمر على ضرورة التزام الثقلين: كتاب الله تعالى والعترة الطاهرة(٣).

وطلبه في آخر ساعة من حياته أن يؤتى بدواة وكتف ليكتب للأمة كتاباً لن تضل بعده أبداً(٤).

إلى غير ذلك من مصاديق توجسه وقلقه (صلى الله عليه وآله) على مستقبل المسيرة الإسلامية، بالرغم من احتياطه لتحصين الأمة وتجنيبها من الوقوع في الفتنة.

وما أن فاضت نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله) واشتغل علي (عليه السلام) وأهل البيت بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر في مثواه الأخير، حتى عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً في سقيفة بني ساعدة لتنصيب من يخلف النبي (صلى الله عليه وآله) في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات حادة وطويلة سادها جو من التوتر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطاب إلى بيعة أبي بكر بالخلافة(٥) وطلب من الحاضرين ذلك، ولم يكن علي (عليه السلام) على علم بما حدث، ولكن النبأ قد انساب إلى مسامعه من خلال الضجيج الذي أحدثه خروج القوم من السقيفة، وهم في طريق توجههم للمسجد النبوي:

وحتى تلك الساعة مازال علي وأهل البيت (عليه السلام) مشغولين بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ ظل (صلى الله عليه وآله) جثمانه الطاهر ثلاثة أيام(٦) دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الإمام (عليه السلام) بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة واعتزل الناس، وما هم

فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما

يسمى بحروب الردة ولا سواها(٧).

ولقد استجدت أمور وأحداث خطيرة تتهدد الإسلام وأمته بالفناء، فقد قوي أمر المتنبئين بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) واشتد خطرهم في الجزيرة العربية من أمثال: مسيلمة الكذاب، وطلحة ابن خويلد الأفاك وسجاح بنت الحرث الدجالة وغيرهم وصار وجودهم يشكل خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية.

واشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة وكان الرومان والفرس للمسلمين بالمرصاد(٨).

هذا عدا ظهور التكتلات السياسية في المجتمع الإسلامي على أثر بيعة السقيفة.

ولقد تعامل الإمام (عليه السلام) مع الخلافة حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً للإسلام وحماية للجامعة الإسلامية من التمزق والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام علي (عليه السلام) كتاب جاء فيه –بهذا الصدد– ما نصه «.. فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه»(٩).

بيد أن صوت علي (عليه السلام) كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتي، وقد تصدى – في هذا المضمار– لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الإمام (عليه السلام) لا يلبث إلا أن يلتقي مع مئات المواقف والأحداث – في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان التي لا تجد غير علي (عليه السلام) مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها.

والخلفاء الثلاثة لم يروا بدأ من استشارته إذا التبست عليهم الأمور، وهكذا تجده –مرة– مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في أمر ما ومرة تجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى

موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية العليا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالي ذلك إذا طرحنا بعض مفردات منهجه المتنبي أيام الخلفاء الذين سبقوه.

أ - في خلافة أبي بكر:

١ - فكر أبو بكر بغزو الروم فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار علياً (عليه السلام) في الأمر فقال (عليه السلام) إن فعلت ظفرت.

فقال أبو بكر: بشرت بخير.

وأمر الناس بالخروج بعد أن أمر عليهم خالد بن سعيد(١٠).

٢ - أراد أبو بكر أن يقيم الحد على شارب خمر...

فقال الرجل: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها فأرسل إلى الإمام يسأله عن ذلك فقال (عليه السلام): «مُر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فإن شهد بذلك رجلان منهم فأقم الحد عليه، وإن لم يشهد أحد بذلك، فاستتبه وخلِّ سبيله».

ففعل الخليفة ذلك، فعلم صدق الرجل فخلى سبيله(١١).

٣ - عن محمد المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى الخليفة أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب، ينكح كما تنكح المرأة، وأن أبا بكر جمع لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم وكان فيهم علي بن أبي طالب أشدهم يومئذ قولاً، فقال:

إن هذا ذنب لم تعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة –يعني قوم لوط– فصنع الله بها ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فكتب أبو بكر بذلك إلى ابن الوليد(١٢).

٤ - قدم جاثليق النصاري يصحبه مائة من قومه فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً (عليه السلام) فأجابه عنها، ونكتفي منها بسؤال واحد من أسئلة الجاثليق: -أخبرني عن وجه الرب تبارك وتعالى!

فدعا علي (عليه السلام) بنار وحطب، وأضرمه، فلما اشتعلت قال أين وجه هذه النار؟

قال الجاثليق: هي وجه مع جميع حدودها.

فقال علي (عليه السلام): هذه النار مدبرة مصنوعة، لا يعرف وجهها وخالقها ولا يشبهها، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فتم وجه الله لا تخفى على ربنا خافية(١٣).

٥ - وأرسل ملك الروم رسولاً إلى أبي بكر يسأله عن رجل لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع ولا يسجد ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لم ير ويحب الفتنة ويبغض الحق، فأخبر بذلك علياً (عليه السلام) فقال:

هذا رجل من أولياء الله: لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولكن يخاف الله ولا يخاف من ظلمه، وإنما يخاف من عدله، ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنازة، ويأكل الجراد والسمك، ويأكل الكبد، ويحب المال والولد (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ويشهد بالجنة والنار وهو لم يرهما، ويكره الموت وهو حق(١٤).

هذه بعض مصاديق اهتماماته بمسيرة الإسلام التاريخية في عهد أبي بكر.

ب - في خلافة عمر بن الخطاب:

١ - حين أراد عمر بن الخطاب أن يغزو الروم راجع الإمام (عليه السلام) في الأمر، فنصحه الإمام بألا يقود الجيش بنفسه مبيناً علة ذلك قائلاً: «.. فابعث إليهم رجلاً مجرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس، ومثابةً للمسلمين»(١٥).

٢ - ورد إلى بيت مال المسلمين مال كثير –من البحرين– فقسمه عمر بين المسلمين، ففضل منه شيء، فجمع عمر المهاجرين والأنصار واستفتاهم بأمره قائلاً: ما ترون في فضلٍ، فضل عندنا من هذا المال؟

قالوا: يا أمير المؤمنين إنا شغلناك بولاية أمورنا من أهلك وتجارتك، وضيعتك، فهو لك.

فالتفت عمر إلى علي قائلاً: ما تقول أنت؟

قال الإمام (عليه السلام): قد أشاروا عليك.

قال الخليفة: فقل أنت؟

قال (عليه السلام): لِمَ تجعل بيقينك ظناً، ثم حدثه بواقعة مشابهة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وأخيراً أشار عليه الإمام (عليه السلام) بتوزيعه على الفقراء، قائلاً، «أشير عليك أن لا تأخذ من هذا الفضل وأن تفضه على فقراء المسلمين».

فقال عمر: صدقت والله(١٦).

٣ - «عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول أن نزك هذا المال في جوف الكعبة لأخذه وأقسمه في سبيل الله وفي سبيل الخير وعلي بن أبي طالب يسمع ما يقول، فقال عمر: ما تقول يا ابن أبي طالب بالله لئن شجعتني عليه لأفعلنّ؟

فقال علي: أتجعله فينا، وصاحبه رجل يأتي في آخر الزمان(١٧) فاقتنع عمر بضرورة عدم التصرف بحلي الكعبة.

٤ - بعث أبو عبيدة بن الجراح وبرة بن رومان الكلبي إلى عمر بن الخطاب: إن الناس قد تتابعوا في شرب الخمر بالشام، وقد ضربت أربعين ولا أراها تغني عنهم شيئاً، فاستشار عمر الناس..

فقال علي (عليه السلام): أرى أن تجعلها بمنزلة حد القذف «ثمانون جلدة».

إن الرجل إذا شرب هذي، وإذا هذي افترى. فجلدها عمر بالمدينة، وكتب إلى أبي عبيدة.. فجلدها بالشام(١٨).

٥ - وقد ورد أن عمر بن الخطاب رأى ليلة رجلاً وامرأة على فاحشة، فلما أصبح قال للناس: أرأيتم أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة. فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين؟

قالوا: إنما أنت إمام.

فقال علي ابن أبي طالب: «ليس ذاك لك، إذن يقام عليك الحد، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهداء» ثم إن عمر ترك الناس ما شاء الله، ثم سألهم: فقال القوم مثل مقالتهم الأولى..

وقال علي (عليه السلام) مثل مقالته.

فأخذ عمر بقول الإمام(١٩).

٦ - عن ابن سيريـــن أن عمر بن الخطاب ســـأل الناس قائلاً: كم يتزوج المملوك؟ وقال لعلي: إياك أعني يـــا صاحب المعافري – رداء كان عليه – .

فقال الإمام (عليه السلام) اثنتين(٢٠).

٧ - بعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك

فامتثله، فكتب ابن الجراح إلى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر.

فقال علي (عليه السلام): مرْ صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه (وآله) وسلم، وصدقت أنت يا أبا الحسن.. ثم كتب إلى أبي عبيدة بالذي أشار به علي (عليه السلام)(٢١).

٨ - بعد انتصار المسلمين على الفرس في خلافة عمر، شاور

ابن الخطاب أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سواد الكوفة..

فقال بعضهم: تقسمها بيننا، ثم شاور علياً (عليه السلام) في الأمر.

فقال إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا فقال عمر لعلي: وفقك الله... هذا الرأي(٢٢).

٩ - عن الطبري في تاريخه عن سعيد بن المسيب. قال: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم، من أي يوم نكتب التاريخ؟..

فقال علي (عليه السلام): من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله، وترك أرض الشرك، ففعله عمر(٢٣)، وهكذا وجد التاريخ الهجري ليؤرخ به المسلمون.

هذه بعض ملامح دور الإمام علي (عليه السلام) الرسالي في خلافة عمر بن الخطاب.

ج - في عهد عثمان:

١ - تزوج شيخ كبير بكراً فحملت، فادعى الرجل أنه لم يصل إليها، فسأل عثمان المرأة: هل افتضك الشيخ؟

قالت: لا فأمر بإقامة الحد عليها.

فقال الإمام (عليه السلام): إن للمرأة سمين: سم الحيض وسم البول، فلعل الشيخ كان ينال منها فسال ماؤه في سم الحيض، فحملت منه.

فقال الرجل: قد كنت أنزل الماء في قبلها من غير وصول إليها بالافتضاض.

فقال الإمام علي (عليه السلام): «الحمل له، والولد له، وأرى عقوبته على الإنكار له»(٢٤).

٢ - عن موطأ مالك عن بعجة بن بدر الجهني: أنه أتى –عثمان– بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم برجمها فقال علي (عليه السلام): إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله تعالى يقول: «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» ثم قال «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة».

فحولان مدة الرضاعة وستة أشهر مدة الحمل.

فقال عثمان: ردوها (٢٥).

١ - مناقب الخوارزمي عن عائشة ومسند أحمد بن حنبل ج٢ ص٣٠٠/ وذخائر العقبي للمحب الطبري ص٧٣ وغيرها يراجع علي والوصية ص٢٠٦ - ٢١١.

٢ - أخرجه النسائي وأبو داود وابن ماجة وأحمد بن حنبل في مسنده.

٣ - أخرجه الترمذي برقم ٨٧٤ من أحاديث كنز العمال ج١ ص٤٤ ومسند ابن حنبل ج٥ ص١٨٢ وص١٨٩ ومستدرك الحاكم ج٣ ص١٤٨ وغيرها.

٤ - أخرجه البخاري ج١ كتاب العلم ص٢١ ومسلم في آخر الوصايا من صحيحه ج٣ ص٢٥٩/ وأحمد بن حنبل في مسنده ج١ وغيرهم.

٥ - راجع صحيح البخاري ج٤ ص١٩٤ وتراجع السقيفة/ للشيخ محمد رضا المظفر ونظام الحكم والإدارة في الإسلام/ لمحمد مهدي شمس الدين للتفاصيل.

٦ - تاريخ ابن كثير ج٥ ص٢٧١/ وتاريخ أبي الفداء ج١ ص١٥٢، نقلاً عن الغدير ج٧ ص٧٥.

٧ - السقيفة ص١٦٠ ط٤، ١٩٧٣ بيروت.

٨ - المراجعات/ للحجة السيد شرف الدين ص٣٠٢.

٩ - من كتاب له إلى أهل مصر مع مالك الأشتر حين ولاه إمارتها ص٤٥١ من نهج البلاغة تبويب الدكتور صبحي الصالح ط١ ١٩٦٧ بيروت.

١٠ - تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١١١ - نقلاً عن علي والخلفاء للعسكري ص٦٢.

١١ - مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٧٨ وبحار الأنوار ج٤٠ عن الكافي.

١٢ - كنز العمال ج٣ ص٩٩، نقلاً عن علي والخلفاء ص٦٣.

١٣ - علي والخلفاء ص٦٠ نقلاً عن التستري/ قضاء أمير المؤمنين ص٦٦ ط/١ سنة ١٣٦٩ هـ النجف الأشرف.

١٤ - مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٨٠.

١٥ - نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ط١ ص١٩٢.

احفز: ادفع وسق، أهل البلاء: أهل المهارة في الحرب،

مثابة: مرجع.

١٦ - علي والخلفاء/ نجم الدين العسكري ص٨٣، نقلاً عن أحمد بن حنبل في المسند ج١ ص٩٤ وكنز العمال ج٤ ص٣٩.

١٧ - كنز العمال ج٧ ص١٤٧ وصحيح البخاري ١٩/ ٧٢٧ وغيره نقلاً عن علي والخلفاء ص٨٧.

١٨ - سنن البيهقي وتاريخ الطبري وكنز العمال ج٣ ص١٠١ وشرح الموطأ للزرقاني ج٤ ص٢٥ وغيره. نقلاً عن علي الخلفاء ص٩٠.

١٩ - كنز العمال ج٣ ص٩٦ والفتوحات الإسلامية ج٢ ص٤٨٢، نقلاً عن علي والخلفاء ص٩٨.

٢٠ - مناقب آل أبي طالب. ج٢ ص١٩١، وعلي والخلفاء ص١٠٢.

٢١ - علي والخلفاء ص١٣٣ نقلاً عن ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن الحجة الحموي الحنفي. ج٢ ص١٥ ط١٣٦٨.

٢٢ - علي والخلفاء ص٢٣٩.

٢٣ - تاريخ الطبري ج٢ ص٢٥٣، وفي تاريخ اليعقوبي مثله وكنز العمال ومستدرك الحاكم والكامل لابن الأثير نقلاً عن علي والخلفاء ص٢٤٠.

٢٤ - مناقب آل أبي طالب ج٢ ص١٩٢ وعجائب أحكام أمير المؤمنين/ محمد ابن علي القمي (ره) ص٤٣.

٢٥ - المناقب ص١٩٢ وابن كثير في تفسيره ج٤ ص٥٧، والبيهقي في سننه ج٧ ص٤٤٢.

حرب البصرة

على الرغم من أن طلحة والزبير كانا من أشد الناقمين على سياسة عثمان ومع أنهما سبقا الناس في البيعة للإمام علي (عليه السلام) بعد قتل عثمان، فإن الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام (عليه السلام) في الحياة الإسلامية لم تجد هوى في نفسيهما فبدآ في العمل للخروج على الإمام (عليه السلام) وإثارة المسلمين عليه، فكانت حصيلة ذلك فتنة كبدت الأمة خسارة فادحة.

وقد بذل الإمام (عليه السلام) جهداً كبيراً لتحاشي هذه الفتنة فلم يأل جهداً في بذل النصح لهم وتحميلهم مغبة ما سيكون إذا نشبت الحرب، وهذه نصيحته (عليه السلام) لهما:

«أما بعد يا طلحة، ويا زبير، فقد علمتما أني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما أول من بادر إلى بيعتي، ولم تدخلا في هذا الأمر، بسلطان غالب، ولا لعرض حاضر، وأنت يا زبير، ففارس قريش، وأنت يا طلحة فشيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد إقراركما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولياؤه المطالبون بدمه، وأنتما رجلان من المهاجرين، وقد أخرجتما أمكما من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقر فيه، والله حسبكما..»(١).

وفي البصرة استمر الإمام (عليه السلام) يبذل نصحه من أجل حقن الدماء، فأرسل للناكثين رسولاً يدعوهم للصلح ورأب الصدع.

كما التقى بالزبير وذكره بأمور جرت لهما في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) منها: ما حملك على ما صنعت يا زبير؟

قال: حملني على ذلك الطلب بدم عثمان!

فقال الإمام: إن أنصفت نفسك، أنت وأصحابك قتلتموه، ولكني أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا زبير أتحب علياً، فقلت، وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي.

فقال لك: أما أنك تخرج عليه وأنت له ظالم!

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك.

فقال الإمام: «أنشدك الله أتذكر يوم جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) من عند بني عوف،

وأنت معه، وهو آخذ بيدك فاستقبلته، فسلمت عليه، فضحك في وجهي، وضحكت إليه. فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال (صلى الله عليه وآله) لك: مهلاً يا زبير ليس بعلي زهو، ولتخرجن عليه يوماً وأنت ظالم له؟

قال الزبير: اللهم بلى، ولكني قد نسيت ذلك، وبعد أن ذكرتنيه لأنصرفنَّ»(٢).

وقد عزم الزبير على اعتزال الناس، غير أن ابنه عبد الله وصفه بالجبن إن هو أقدم على ذلك.

وهكذا تفجّر الموقف واندلع القتال بين المعسكرين..

الموقف الإنساني:

غير أن الإمام ظل ملتزماً بالصبر والأناة وبما امتاز به من الروح الإنسانية الرفيعة، فها هو يخاطب جيشه –بعد اندلاع القتال، وبعد أن ذهبت كل محاولاته لإصلاح الموقف سدى– ملزماً أصحابه بأرفع الأخلاق التي يريد الله سبحانه من المسلم الالتزام بها في ساحة الحرب أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبياً، ولا تأخذوا سلاحاً، ولا متاعاً(٣). طارحاً بذلك أحكام شريعة الله تعالى في البغاة.

ثم دعا ربه الأعلى سبحانه مستجيراً من الفتنة التي فجرها الناكثون معلناً براءته منها أمام الله الكبير المتعال.

فبعد أن رفع يديه إلى السماء قال «اللهم إن طلحة والزبير أعطياني صفقة أيديهما طائعين، ثم نصبا إلى الحرب ظاهرين، اللهم، فأكفنيهما بما شئت وكيف شئت..»(٤).

وقد أسفرت المعركة عن انتصار ساحق لمعسكر الإمام (عليه السلام) فأعلن الإمام العفو العام عن جميع المشتركين في حربه:

«ألا لا يجهز على جريح، ولا يتبع مولٍ، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ولا يستحلن فرج ولا مال، وانظروا ما حضر به الحرب من آنية فاقبضوه، وما كان سوى ذلك، فهو لورثته، ولا يطلبن عبد خارج من المعسكر، وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم، وليس لكم أم ولد –الأمة استولدت ذكراً أو أنثى– والمواريث على فريضة الله، وأي امرأة قتل زوجها، فلتعتد أربعة أشهر وعشراً.

فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماءهم ولا تحل لنا نساؤهم؟

فقال (عليه السلام): كذلك السيرة في أهل القبلة(٥).

بيد أن بعضاً من جيشه كانوا يرغبون الحصول على مغانم أكبر مما حدده الإمام (عليه السلام).

فقام له رجلٌ قائلاً: يا أمير المؤمنين، والله ما قسمت بالسوية ولا عدلت في الرعية!

قال الإمام (عليه السلام): ولم؟ ويحك!!

قال: لأنك قسمت ما في المعسكر وتركت الأموال والنساء والذرية!!

فقال له الإمام موضحاً فلسفة ذلك الموقف الإنساني الذي التزمه:

يا أخا بكر: إنك امرؤ ضعيف الرأي أو ما علمت أنا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير، وأن الأموال كانت لهم قبل الفرقة وتزوجوا على رشد، وولدوا على الفطرة، وإنما لكم ما حوى عسكرهم، وما كان في دورهم، فهو ميراث لذريتهم، فإن عدا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه، وإن كفَّ لم نحمل عليه ذنب غيره.

يا أخا بكر: لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أهل مكة: قسم ما حوى العسكر، ولم يعرض لما سوى ذلك وإنما اتبعت أثره..

يا أخا بكر: أما علمت أن دار الحرب يحل ما فيها؟

وأن دار الهجرة يحرم ما فيها إلا بحق..».

هذه بعض مصاديق الموقف الإنساني الفريد الموافق لأمر الله والمطابق لشريعته الغراء الذي التزم به الإمام (عليه السلام) في معاملة المنهزمين في خصومه.. إنه موقف لا ترى فيه للعاطفة والاندفاع والتشفي أثراً.. إنه موقف جسد فيه الإمام حكم الله تعالى.

وهل غير علي (عليه السلام) جدير بتجسيد حكم شريعة الله فيما شجر بين الناس؟

وواصل الإمام (عليه السلام) خطواته الإنسانية إزاء الناكثين.

وهكذا حسم الموقف لصالح الإمام (عليه السلام) في فتنة البصرة فأبدى الإمام (عليه السلام) خلاله وبعده أنبل المشاعر وأصدقها نحو المغرر بهم محاولاً بذلك رأب الصدع وجمع الشمل وإعزاز الأمة.

١ - الفصول المهمة ص٥٥ لابن الصباغ المالكي.

٢ - الفصول المهمة في معرفة الأئمة/ ابن الصباغ المالكي ص٦٣ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص٧٧، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١٦٧.

٣ - الفصول المهمة / للمالكي ص٦٢ وتذكرة سبط ابن الجوزي.

٤ - الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٦٢، وتذكرة سبط بن الجوزي.

٥ - أحاديث أم المؤمنين عائشة ق١ ص١٨١، نقلاً عن اليعقوبي وكنز العمال.

المنهج العبادي في خطوطه الأساسية

والى منهجه العبادي الملتزم أشار الإمام الباقر (عليه السلام) بقوله:

«.. وما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه»(١).

وقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام) ذاته «.. وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر»(٢).

وفي حديث ضرار بن ضمرة لمعاوية بن أبي سفيان حول شخصية الإمام (عليه السلام) تجسيد لهذه الحقيقة، فمما جاء في حديثه «.. كان والله صواماً بالنهار قواماً بالليل..».

توكل صادق ويقين راسخ:

وحيث أن التوكل على الله تعالى زاد المتقين، واليقين بالله شعار المؤمنين الصادقين يملأ قلوبهم بالثقة والاطمئنان والعزة والارتفاع على جميع عقبات الحياة.

فقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) قائداً لأهل اليقين بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويعسوباً للمتوكلين.

وهذه سيرته تتحفنا بالعديد من الشواهد في هذا المضمار: فعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:

كان لعلي (عليه السلام) غلام اسمه قنبر، وكان يحب علياً حباً شديداً، فإذا خرج علي (عليه السلام) خرج على إثره بالسيف فرآه ذات ليلة، فقال له: يا قنبر مالك؟

قال: جئت لأمشي خلفك، فإن الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين فخفت عليك.

قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض؟

قال: لا بل من أهل الأرض.

قال (عليه السلام): إن أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً إلا بإذن الله عز وجل فارجع.

فرجع(٣).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «إن أمير المؤمنين جلس إلى حائط يقضي بين الناس.

فقال بعضهم: لا تقعد تحت هذا الحائط فإنه معور، فقال أمير المؤمنين: حراس أمرأ أجله.

فلما قام أمير المؤمنين (عليه السلام) سقط الحائط.

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) مما يفعل هذا وأشباهه، وهذا اليقين»(٤).

وعن سعيد بن قيس الحمداني قال «نظرت يوماً في الحرب إلى رجل عليه ثوبان، فحركت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين (عليه السلام).

فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع؟

فقال: نعم يا سعيد بن قيس، إنه ليس من عبد إلا وله من الله عز وجل حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء»(٥).

هذا هو علي (عليه السلام) في قوة يقينه بالله، وشدة توكله عليه سبحانه.

مصاديق من زهد الإمام (عليه السلام):

ولقد كان الزهد معلماً بارزاً من معالم شخصية الإمام (عليه السلام)، وسمة مميزة زينه الله تعالى به فعن عمار بن ياسر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي. «إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها، هي زينة الأبرار عند الله: الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ –تعيب– من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهبك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً»(٦).

وقد كان من شواهد تلك الصفة التي حباه الله تعالى بها:

أن زهد الإمام (عليه السلام) عن كل لذاذات الحياة وزينتها وتوجه بكل وجوده نحو الآخرة، وعاش عيشة المساكين وأهل المتربة من رعيته.

لقد زهد الإمام (عليه السلام) بالدنيا وزخرفتها زهداً تاماً وصادقاً:

زهد في المال والسلطان، وكل ما يطمع به الطامعون.

فلقد عاش في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه الفقراء من الأمة، وكان يأكل الشعير تطحنه امرأته أو يطحنه بنفسه قبل خلافته وبعدها، حيث كانت تجيء الأموال إلى خزانة الدولة التي كان يضطلع بقيادتها من شرق الأرض وغربها. وغالباً ما كان يلبس أبسط أنواع الثياب، فكان ثمن قميصه ثلاثة دراهم.

وقد بقي ملتزماً بخطه في الزهد طوال حياته، فقد رفض أن يسكن القصر الذي كان معداً له في

الكوفة حرصاً منه على التأسي بالمساكين(٧).

وهذه بعض المصاديق كما ترويها سيرته العطرة:

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: «كان أمير المؤمنين أشبه الناس طعمة برسول الله (صلى الله عليه وآله) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم»(٨).

وعن الباقر (عليه السلام) قال: «ولقد ولي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاً ولا حمراً»(٩).

وعن عمرو بن عبد العزيز قال «ما علمنا أن أحداً كان في هذه الأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة»(١٠).

وعن الأحنف بن قيس قال: «دخلت على معاوية، فقدم إلي من الحلو والحامض، ما كثر تعجبي منه، ثم قال: قدموا ذاك اللون،

فقدموا لوناً ما أدري ما هو..!

فقلت: ما هذا؟

فقال: مصارين البط محشوة بالمخ ودهن الفستق قد ذر عليه السكر!!

قال الأحنف: فبكيت.

فقال معاوية: ما يبكيك؟

فقلت: لله در ابن أبي طالب، لقد جاد من نفسه بما لم تسمع به أنت ولا غيرك!

قال معاوية: وكيف؟

قلت: دخلت عليه ليلة عند إفطاره..

فقال لي: قم فتعش مع الحسن والحسين، ثم قام إلى الصلاة، فلما فرغ دعا بجراب مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً، ثم ختمه.

فقلت: يا أمير المؤمنين لم أعهدك بخيلاً، فكيف ختمت على هذا الشعير.

فقال: لم أختمه بخلاً، ولكن خفت أن يبسه الحسن والحسين بسمن أو أهالة!

فقلت: أحرام هو؟

قال: «لا، ولكن على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللباس، ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير، فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغني

فيزداد شكراً وتواضعاً»(١١).

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي (عليه السلام) بالكوفة، وبين يديه رغيف من شعير، وقدح من لبن، والرغيف يابس، فشق علي ذلك.

فقلت: لجارية له يقال لها فضة: ألا ترحمين هذا الشيخ، وتنخلين له هذا الشعير.

فقالت:.. إنه عهد إلينا ألا ننخل له طعاماً قط..!

فالتفت الإمام إلي.

وقال: ما تقول لها يا ابن غفلة، فأخبرته..

وقلت: يا أمير المؤمنين ارفق بنفسك.

فقال لي: ويحك يا سويد؟ ما شبع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهله من خبز بر ثلاثاً تباعاً حتى لقي الله، ولا نخل له طعام قط..»(١٢).

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: روّي على علي (عليه السلام) أزار مرقوع، فعوتب في ذلك؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن(١٣).

وعن الغزالي يقول: «كان علي بن أبي طالب يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»(١٤).

هذا هو علي في شدة زهده ورغبته عن الدنيا وزخارفها، وفي عظيم اقتدائه برسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي مواساته لأهل المتربة من أمته (صلى الله عليه وآله)، فهل حدثك التاريخ عن زعيم كعلي (عليه السلام)؟ تجبى إليه الأموال من الشرق والغرب، وعاصمته الكوفة –تقع في أخصب أرض الله وأكثرها غنى يومذاك، بيد أنه يعيش أبسط عيش مواسياً لأقل الناس حظاً في العيش في هذه الحياة.. يأكل خبز الشعير دون أن يخرج نخالته.. ويكتفي بقميص واحد لا يجد غيره عند الغسل.. ويحرم على نفسه الأكل من بيت المال.. ويرقع مدرعته حتى يستحي من راقعها(١٥). مجسداً بذلك أرفع شعائر للزاهدين «.. فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوب طمرا، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأوهن من عصفه مقرة»(١٦).

صدقة الإمام (عليه السلام):

ولا نريد أن نذهب بعيداً في طرح الشواهد على تعاهد الإمام علي (عليه السلام) لأمر الصدقة، قبل أن نستقي من القرآن الكريم نماذج من صدقة الإمام (عليه السلام) عطرتها آيات الله تعالى بالثناء الجميل، ورسمت أبعاد الثواب الإلهي العظيم الذي لا يعلم مداه غير الله الذي أعده تبارك وتعالى لأمير المؤمنين (عليه السلام):

ففي حادثة إطعام علي (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيام وإيثارهم لهم على أنفسهم، واكتفائهم بالماء وهم في أيام صوم متتالية.. تنزلت آيات الله تعالى مسجلة أعظم مآثر علي (عليه السلام) في ضمير الوجود حيث ستبقى ترددها الآفاق والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى.

(ويطعمون الطعام على حبة مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريراً. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) (الإنسان/ ٨–١٢).

وليس المهم في الأمر حجم ما قدمه الإمام (عليه السلام) لأولئك المحتاجين، فإن الكثير من الناس يبذلون أضعاف ذلك.

ولكن شتان بين من ينفق لوجه الله خالصاً دون شائبة، وبين من ينفق من أجل غرض دنيوي أو جاه أو ذكر يشاع بين الناس. كما أنه شتان بين من ينفق كل ما لديه وهو أحوج ما يكون إليه وبين من ينفق بعض ما لديه..

وهكذا يختلف التقويم عند الله تعالى بين ذا وذاك!

وفي حادثة تصدق علي (عليه السلام) بخاتمه على مسكين استبدت به الحاجة، فطاف على الناس فلم يجد من يسد خلته، فأشار إليه علي (عليه السلام) وهو يصلي في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومنحه خاتماً في يده.

فنزل القرآن الكريم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مبينا فضل ما أقدم عليه الإمام (عليه السلام) واستعمل القرآن المناسبة لإرشاد الأمة إلى أن علياً (عليه السلام) مرجعها الفكري والعملي بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (المائدة/ ٥٥– ٥٦).

وهذه الآية الكريمة من أكثر النصوص دلالة على أن العمل الصالح في منظور الله تبارك وتعالى إنما هو بدوافعه لا بحجم منافعه.

فليس المهم أن تعطي كثيراً، ولكن الأساس في الأمر نية العطاء فالتقييم الرباني إنما يدور مدار النية حيث تدور، فكلما اقتربت من الله تعالى وابتغيت رضوانه كان ثوابك أعظم وأجل..

ومن المناسب أن نطرح إضافة إلى ذلك مصاديق من سيرة الإمام (عليه السلام) في هذا المضمار مما روته كتب التاريخ.

فعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال «كان أمير المؤمنين يضرب بالمر –المسحاة– ويستخرج الأرضين، وأنه أعتق ألف مملوك من كديده»(١٧).

وعن أيوب بن عطية الحذاء قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «قسم نبي الله الفيء، فأصاب علياً أرضاً، فاحتفر فيها عيناً، فخرج ماء ينبع كهيئة عنق البعير، فسماها ينبع، فجاء البشير يبشر. فقال (عليه السلام): بشر الوارث هي صدقة بتة بتلاء في حجيج بيت الله، وعابري سبيل الله لا تباع، ولا توهب ولا تورث فمن باعها أو وهبها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»(١٨).

وعن أحمد بن حنبل في الفضائل: أنه كانت غلة علي أربعين ألف دينار فجعلها صدقة»(١٩).

والحديث عن حرص الإمام (عليه السلام) على تعاهد أمر الصدقة في سبيل الله تعالى يذكرنا بالنفس السخية التي يمتاز بها أمير المؤمنين (عليه السلام).

فكثرة أدائه للصدقة وشدة بذله لها وإن كان يعكس صورة صادقة عن جود الإمام (عليه السلام) وسخائه، إلا أن سيرته العطرة تكشف إلى جانب ذلك وجهاً آخر من شخصية الإمام.

فقد كان (عليه السلام) أسخى من الغيث على الأمة التي عايشها لا أقصد بهذا جوده بنفسه من أجل حفظ الرسالة ومسيرة الإسلام التاريخية، ذاك الذي يتجلى عبر البطولات التي أبداها (عليه السلام) في حروب الإسلام كلها، فحديث كهذا.. يتطلب بمفرده سفراً كاملاً!، وإنما نقصد ما يتعلق بالسخاء بالمال(٢٠).

فلقد اعترف بجود الإمام (عليه السلام) وسخائه أشد الناس عداوة له: معاوية بن أبي سفيان

الذي ما برح ينسج الأكاذيب والافتراءات لتشويه سمعة الإمام (عليه السلام) غير أنه لم يستطع أن ينكر فضيلة الجود عند علي (عليه السلام) فقد قال له يوماً مخفي ابن مخفي الضبي: جئتك من عند أبخل الناس فقال ابن أبي سفيان: ويحك كيف تقول أنه أبخل الناس، لو ملك بيتاً من تبر –ذهب– وبيتاً من تبن لأنفذ تبره قبل تبنه(٢١).

ويقول الشعبي يصف الإمام (عليه السلام): كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال لا لسائل قط(٢٢).

الجهاد في سبيل الله:

وحياة علي أمير المؤمنين (عليه السلام) كلها جهاد في سبيل الله تعالى في مرحلة الدعوة، وبعد قيام الدولة الإسلامية، وإذا كان قد وقى الرسول (صلى الله عليه وآله) بنفسه وفداه بوجوده وتعرض لأخطر تآمر جاهلي على حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند مبيته على فراشه في ليلة الهجرة المباركة، من أجل أن يصرف عنه شر عتاة الجاهلية. فإن علياً قد تحولت حياته بعد الهجرة إلى المدينة المنورة إلى حلقات متسلسلة من ذلك النوع الجهادي العظيم، فقد كان حامل لواء الزحف الإسلامي في كل غزوات أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وطليعة المجاهدين في ساحات الجهاد، وكلما حزبت الأمور وحمي الوطيس انتدبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) لكشف زحف العدو عن حياض المسلمين..

وكانت كل مواقفه الجهادية من النوع المصيري الذي يحمي الرسالة ويكشف عنها خطر التصفية المحقق والإجهاز الخطير على وجودها، تجلي ذلك في بدر حين صفى الكثير من رؤوس الوثنيين وملأ بها ساحة المعركة.

وفي «أحد» حين أطبق جيش الضلال على معسكر الإيمان وكانت الغلبة للعدو، نهض الإمام (عليه السلام) بدور عرقلة تقدمهم حيث بادر إلى تصفية حملة الألوية من بني عبد الدار واحداً تلو الآخر.

وفي غزوة الأحزاب حين بلغت القلوب الحناجر وبلغ الضيق والهلع بالمسلمين كل مبلغ نهض الإمام بالأمر وأرهب العدو وأعاد للمسلمين الثقة بالنفس حين قتل أبرز قوادهم عمرو بن ود العامري.

حيث كان قتل العامري حداً فاصلاً بين المعسكرين إذ تلاه انهزام جيش الأحزاب مع ما امتاز به من ضخامة في العدد والعدة..

وعلي (عليه السلام) هو الذي اقتحم حصون خيبر ودخل عليهم عنوة، ففتح الله على يديه حصون اليهود الرهيبة.

وكم سطر لك من بطولات علي (عليه السلام) وصفحات جهاده المشرقة التي تشع بالمجد والعزّة والإخلاص(٢٣)؟

فدونك تاريخ الإسلام في عصره الأول: في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأنعم النظر في صفحاته كي تحدثك بفضل علي (عليه السلام) على الإسلام رسالةً، وأمةً، وتاريخاً.

على أن الجانب العبادي في جهاد علي (عليه السلام) ليس في حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها، فحسب وإنما في صدق النية وحجم الإخلاص الذي امتلأ به قلب علي (عليه السلام) وهو يخوض تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يرد.

ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض.

فها هو القرآن الكريم يثني على علي (عليه السلام) يوم فدى بنفسه رسول الله (صلى الله عليه وآله) «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» (البقرة ٢٠٧) ويكشف بعمق عن صدق نية الإمام (عليه السلام)(٢٤).

وها هو كتاب الله العزيز يقطع بأن جهاد علي (عليه السلام) وبطولاته وتضحياته كانت من أجل الله وإعلاء كلمته في دنيا الناس، ولا يمكن أن تقرن بأي لون من ألوان العمل الآخر. فبسبب الثمن الباهظ الذي يتطلبه الجهاد، وبسبب الدافع الإيماني المخلص الذي لا تشوبه شائبة راحت آيات الله تعالى تحدد الموقع الرفيع الذي يحتله علي (عليه السلام) في دنيا المتقين.

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) (التوبة/ ١٠٩).

فعلى أثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب، قال فيه طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي.

فقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها!

وفيما كانا يتفاخران حرَّ الإمام (عليه السلام) فافتخر عليهما بقوله: «لقد صليت قبل الناس أنا صاحب الجهاد» فنزل قول الله تعالى في ذلك كاشفاً عن المستوى العظـــيم الذي تبوأه علي (عليه السلام) من ناحـــية عمله الإســـلامي: ضخامةً وإخلاصاً(٢٥)، بعداً وجوهراً.

١ - مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني.

٢ - نهج البلاغة من كتاب إلى عثمان بن حنيف رقم ٤٥ ص٤١٦.

٣ - بحار الأنوار ج٤١ ص١ نقلاً عن التوحيد للصدوق.

٤ - نفس المصدر ص٦ نقلاً عن أصول الكافي.

٥ - نفس المصدر.

٦ - مناقب آل أبي طالب ج٢ ص٩٤ ط١ المطبعة العلمية قم.

٧ - علي وحقوق الإنسان، جورج جرداق ص٧٥ ط. ١٩٧ بيروت.

٨ - بحار الأنوار ج٤ ص٣٣٠ عن المحاسن.

٩ - مناقب ابن شهر آشوب ج٥١ ص٣٦.

١٠ - تذكرة الخواص ص١١٧.

١١ - نفس المصدر ص١١٨: يبسه: يضع عليه السمن، والإهالة الشحم أو ما أذيب منه ونحوهما من أدام.

١٢ - تذكرة الخواص ص١٢٠.

١٣ - نفس المصدر والإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص١٢.

١٤ - مناقب ابن شهر آشوب ج١ ص٣٦٦ عن الإحياء للغزالي.

١٥ - للاستزادة من شواهد زهد الإمام (عليه السلام) راجع بحار الأنوار/ ٤٠ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب المازندراني ج١ وغيرهم.

١٦ - كتابة إلى عثمان بن حنيف رقم النص في نهج البلاغة ٤٥ باب الرسائل، التبر، فتات الذهب والفضة قبل الصياغة. الوفر: المال. الطمر: الثوب. الخلق البالي. إتان دبرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها.

١٧ - البحار ج٤١ ص٧٧ عن الكافي ج٥.

١٨ - نفس المصدر ص٤٠ عن الكافي ج٧.

١٩ - المناقب - لابن شهر أشوب ص٣٤٦ والبحار ج١/ ٤١ ص٤٣ عن كشف المحجة لابن طاووس.

٢٠ - مررنا مروراً عابراً على مواقف الإمام وبطولاته العسكرية في القسم الأول فراجع.

٢١ - شرح النهج ج١ ص٢٢.

٢٢ - نفس المصدر.

٢٣ - راجع الحلقة الأولى من دراستنا أمير المؤمنين (عليه السلام) فصل بأس في الحرب.

٢٤ - راجع تفسير الآية في الكشاف للزمخشري والواحدي في أسباب النزول وابن الأثير في أسد الغابة - يشري - يبيع.

٢٥ - تفسير الطبري عن أنس ج١٠ ص٥٩ وأسباب النزول للواحدي ص١٨٢ والقرطبي في تفسيره ج٨ ص٩١ والرازي في تفسيره والنسفي والسيوطي وسواهم، نقلاً عن فضائل الخمسة ج١ ص٢٧٩.

خاتمة

هذه أمثلة يسيرة مما كان ينهض الإمام علي (عليه السلام) به من مسؤوليات عظيمة في عهد الخلفاء، وكان دافعه في ذلك الإخلاص للرسالة وحفظ الوحدة الإسلامية وحماية المسيرة الإسلامية من الانحراف.

ولقد تنبه الخليفة الثاني إلى أهمية ما يقوم به علي (عليه السلام) في هذا المضمار، فصرح مراراً مشيداً بذلك الفضل، ومنوهاً بأهميته في مسيرة الخلافة كقوله: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»(١)، وغير ذلك.

١ - الدر المنثور للسيوطي ج٣ ص١٤٤ وسيرة عمر لابن الجوزي ص١٠٦ والفتوحات الإسلامية لدحلان ج٢ ص٤٨٦ وغيرها، نقلاً عن علي والخلفاء للشيخ نجم الدين العسكري ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج٢ والغدير ج٦ وج٧، وعجائب أحكام أمير المؤمنين للمفسر الجليل محمد بن إبراهيم القمي.

حرب صفين

بعد أن تم لعلي (عليه السلام) النصر عاد بجيشه إلى الكوفة، وبعد أن عزز الجيش عزم على التوجه إلى الشام لتصفية المعارضة التي يقودها معاوية بن أبي سفيان هناك..

وسار الإمام (عليه السلام) على رأس جيشه، غير أن أنباء مسير الإمام (عليه السلام) نحو الشام قد بلغت الناكثين هناك، فقرروا ملاقاة الزحف الإسلامي فتلاقى الجيشان عند نهر الفرات...

وبدأ الإمام (عليه السلام) ببذل مساعيه لإصلاح الموقف بالوسائل السلمية، فأرسل وفداً ثلاثياً إلى معاوية، يدعوه إلى تقوى الله والحفاظ على وحدة الصف والدخول في إجماع الأمة «.. اذهبوا إلى هذا الرجل –معاوية– وادعوه إلى الله تعالى، وإلى الطاعة والجماعة، لعل الله تعالى أن يهديه، ويلتئم شمل هذه الأمة»(١).

والتقى الوفد بقائد المعارضة، وأبلغوه بنوايا الإمام (عليه السلام) ووضعوه أمام الله تعالى وحذروه مغبة ما يقدم عليه، غير أن معاوية أبدى إصراراً، وقد ختم رده على الوفد «انصرفوا عني فليس عندي إلا السيف»(٢).

على أن الموقف الأموي ذلك لم يصرف الإمام (عليه السلام) على التسلح بالصبر والأناة ولم يثر فيه روح التعجيل بالمواجهة الصارمة حقناً للدماء، وحفاظاً على نفوس الأمة..

بيد أن الموقف الإنساني الذي التزمه الإمام (عليه السلام) لم يزد القوى المعارضة إلاّ إصراراً، فعملوا من جانبهم على الحيلولة دون حصول جيش الإمام (عليه السلام) على الماء، حيث سبق أن تحرك فيلق لهم واتخذ مواقعه عند ماء الفرات ليمنع جند الإمام من الماء..

وبالنظر لأهمية الماء في الإستراتيجية العسكرية ولعدم توفر مصدر آخر لجيش الإمام غير الفرات، فإن الإمام (عليه السلام) قد التزم الأناة أيضاً في معالجة الموقف.

فأرسل رسولاً إلى معاوية ليبلغه «أن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه».

فرد عليهم معاوية بقوله: «لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأ»!!!

الأمر الذي اضطر الإمام (عليه السلام) إلى استعمال العنف في الحصول على الماء لجيشه، حيث لا بديل للعنف..

وهكذا حرك الإمام (عليه السلام) فرقة من جيشه لإنهاء الحصار المضروب عليهم، فانهزم فيلق معاوية شر هزيمة..

وبعد أن صار الماء في نطاق نفوذ جيش الأمام (عليه السلام) أذن للباغين بالتزود منه متى شاؤوا، مجسداً بذلك بنداً من أخلاق الإسلام العظيمة في هذا المضمار.

فأعظم بعلي من محارب نبيل، وأكرم به من صاحب قلب كبير..

وحيث أن همّ الأمام (عليه السلام) أن يحقن دماء المسلمين ويصونهم من التمزق، ويدرأ التصدع عن صفهم، فقد طلب من معاوية أن ينازله إلى ميدان القتال فيتقاتلا دون الناس لكي تكون إمامة الأمة لمن يغلب «يا معاوية علام يقتتل الناس؟ أبرز إلي ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب»(٣).

إلا أن معاوية قد رفض خوفاً من بطش الإمام (عليه السلام) وبالرغم من أن الجيش الأموي قد بدأ القتال من جانبه، فإن الإمام (عليه السلام) قد التزم بضبط النفس كذلك وحاول أن يحصر القتال في حدود المبارزة المحدودة(٤).

ولما لم تلق محاولات الإمام (عليه السلام) الرأب الصدع –الذي خلفه معاوية في صف الأمة– استجابة، تفجر الموقف بحرب واسعة النطاق استمرت أسبوعين دون هوادة.

وقد لاحت تباشير النصر لصالح معسكر الإمام (عليه السلام) وأوشكت القوى الباغية على الانهزام، فدبروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح والسيوف.. مما نجم عن تلك الخطة الماكرة تغير جوهري في الموقف العام.

ولقد كان لرفع المصاحف من لدن معسكر معاوية صدى عميقاً في معسكر الإمام (عليه السلام) إذ سرعان ما سارت كثرة كاثرة من جيشه مطالبة بإيقاف القتال.. فكثر اللغط بين الصفوف وآثر الآلاف ترك الحرب..

ومع أن الإمام (عليه السلام) تصدى لكشف خلفيات رفع المصاحف واستعمل كل وسائله الإقناعية في البرهنة على كونها خدعة يراد بها عرقلة تحقيق النصر الذي بات وشيكاً لصالح جيش الإمام (عليه السلام). إلا أن المطالبين بإيقاف القتال لم يستجيبوا لنداءاته المتكررة في هذا المضمار، ولعل بعضهم استعمل لغة التهديد للإمام (عليه السلام).. (٥).

واضطروه أن يبعث الأشعث بن قيس إلى معاوية للتعرف على ما يريد من وراء رفعه للمصاحف،

فعاد يحمل رغبة معاوية في التحكيم.. ثم تلى ذلك الفصل الثاني من المأساة، فاختارت الغوغاء أبا موسى الأشعري لتمثيل معسكر الإمام (عليه السلام) بينما اختار معاوية ابن العاص. على أن الإمام (عليه السلام) قد رفض فكرة تمثيل الأشعري لمعسكره باعتبار أن الأشعري كان معتزلاً للإمام (عليه السلام) ولم يكن يرى في الإمام أهلاً لتولي الخلافة بعد عثمان (٦) - هو وآخرون ممن اعتزلوا الإمام (عليه السلام)– وكان يخذل الناس عن نصرة الإمام، مما حمل الإمام على عزله من ولاية الكوفة(٧)..

وقد رجح الإمام (عليه السلام) أن يكون الممثل لمعسكره في التحكيم عبد الله بن عباس، غير أن الغوغاء أصروا على اختيار أبي موسى الأشعري بالرغم من تأكيد الإمام على ضعفه ووهن رأيه إضافة إلى مرتكزاته الفكرية وموقفه من حكومة الإمام (عليه السلام).

وها هو الإمام (عليه السلام) يخاطب المخدوعين بقوله «قد عصيتموني في أول الأمر –يشير إلى قبول التحكيم وإيقاف القتال– فلا تعصوني الآن، لا أرى أن تولوا أبا موسى الحكومة فإنه ضعيف عن عمرو ومكائده»(٨).

إلا أنهم أصروا على اختيار الأشعري..

ومن هنا فإن الباحث البصير لا يمكن أن يركن إلى الاعتقاد بأن تلك الأمور قد جرت بشكل عفوي أبداً.. فإن سير الأحداث لا يدل على ذلك.. إذ أن رفع المصاحف كان قد جرى بتوقيت وتنسيق بين معاوية وحركة موالية له في جيش الإمام (عليه السلام) لابد أن يكون له اتصال معها..

فما أن ارتفعت المصاحف حتى استجاب أولئك لإيقاف القتال مستفيدين من سأم الناس من القتال، فوسعوا قاعدتهم في صفوف معسكر الإمام (عليه السلام) وفرضوا عليه التحكيم، وممثل معسكره في التحكيم فيما بعد..

وهكذا فإني لا أعتقد بحال أن لا تكون حركة التمرد في جيش الإمام (عليه السلام) بذلك الشكل الذي ذكره المؤرخون لا تعتمد على تخطيط أموي مسبق أبداً..

وقد جاءت نتائج التحكيم –كما توقع الإمام (عليه السلام) لصالح معاوية حيث بدأ الأمر يستتب له شيئاً فشيئاً.

١ ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٧٠.

٢ ـ نفس المصدر السابق ص٧١.

٣ ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، بلفظ متقارب.

٤ ـ نفس المصدر السابق.

٥ ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص١٠٣.

٦ ـ راجع الفصول المهمة ص٧٨ وتذكرة الخواص ص١٠٣.

٧ ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص٧٤.

٨ ـ نفس المصدر ص٧٩.

الأخلاق الاجتماعية

بمقدور المتتبع أن يتخذ من وصف ضرار بن ضمرة لأمير المؤمنين (عليه السلام) منطلقاً للدخول في عالمه الرحيب.

فقد دخل ضرار على معاوية – أيام استكان الناس وأسلموا لمعاوية القياد– فألح على الرجل أن يصف له علياً (عليه السلام) فتردد ضرار كثيراً، فلما مضى معاوية في إصراره قال ضرار: أما إذا لابد (فكان والله بعيد المدى، شديد القوى - يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، يستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير الدمعة، كثير الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه.

ونحن والله مع قربه منا، ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه لعظمته، فإن تسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم.

يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ليلة، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل قائماً في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إلي تشوقت، هيهات، هيهات!! قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير.. آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»(١).

وهذا الوصف للإمام (عليه السلام) على وجازته يكشف بعمق عن الإطار العام لشخصية الإمام (عليه السلام) في شتى ملامحها في الحقل الروحي والاجتماعي، في علاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وكيفية تعامله مع الناس من حوله.

وحيث قد عقدنا هذا الفصل للحديث عن الأخلاق الاجتماعية التي التزم بها (عليه السلام) في حياته العملية، فإن حديث ضرار يضع في أيدينا رأس الخيط الذي يوصلنا إلى طبيعة العلاقات

الاجتماعية التي سلكها أمير المؤمنين في حياته (كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دنوناه، ونحن والله مع قربه سب ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له، ولا نبتديه لعظمته.. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله..».

ويبدو أن هذا اللون من علاقة أمير المؤمنين مع قومه إنما كان في أيام حكمه، مما يطرح بين أيدينا تصوراً ناضجاً عن عظمة أمير المؤمنين (عليه السلام) وبلوغه القمة في مدارج الكمال والفضيلة، فمع أن الإمام (عليه السلام) كان يحتل موقع القيادة في دنيا الناس وبيده أزمة حياتهم الفكرية والاجتماعية، نراه كواحد من عامة الناس، وكأن موقعه ليس في أعلى مركز قيادي فهو يلغي الحواجز والألقاب، ويعامل الأمة كما لو كان واحداً من عامتها بقلب حان، ونفس متواضعة، وحب صادق عميق.. وهي روح لم يألفها التاريخ الإنساني منذ الآماد الموغلة في القدم حتى اليوم في قيادة غير قيادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووصية علي (عليه السلام)..

وقد وفق الإمام (عليه السلام) توفيقاً عظيماً في قيادة الواعين لأهمية قيادته في دنيا المسلمين على الأقل.

فقد كانت قيادته مبنية على الحب والإجلال معاً فبقدر ما كان يبذل من دفء وده للأمة، كان أتباعه يمنحونه الكثير من الود والتعظيم..

الأمر الذي يذكرنا بسياسة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويطرحها واقعاً حياً في دنيا الناس(٢)، فالتجربة واحدة في هذا المضمار وسواه، وإن تغير الموقع التاريخي.. ورحم الله صعصعة ابن صوحان حيث يقول في وصفه للإمام (عليه السلام) «كان فينا كأحدنا لين جانب، وشدة تواضـــع، وسهولة قيـــاد، وكنا نهابـــه، مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه»(٣) وتتجلى عظمة الإمام (عليه السلام) في أخلاقه الاجتماعية من خلال المبادئ الآتية:

أولاً– إشاعة العدل الاجتماعي بين الناس

جاءت الخلافة للإمام (عليه السلام) في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذوو النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا إليه، وليس يسيراً أبداً أن يذعنوا لأية محاولة إصلاحية تضر

بمصالحهم الذاتية.

ثم إن المطامع قد تنبهت لدى الكثير من الرجال، بعد أن أصبحت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمة، ولقد كان الإمام (عليه السلام) مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلاً: «دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة تنكرت..»(٤). ولكن جماهير المدينة المنورة، وجماهير الثوار من العراق ومصر أصروا على استخلافه عليهم، فنزل الإمام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصة –هو «واعلموا إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب»(٥).

ولقد كانت أولى مهام الإمام (عليه السلام) أن يجسد العدالة الاجتماعية في دنيا الناس ويمنح المنهج الإسلامي فرصة في البناء والتغيير على شتى الأصعدة، فقد (عليه السلام) خططه الإصلاحية، بإلغاء السياسة المالية والاجتماعية والإدارية التي كان معمولاً بها ليوفر الجو المناسب لتطبيق المخطط الإسلامي في العدالة الاجتماعية:

أ- استرجاع الأموال التي تصرف بها بنو أمية من بيت المال.

ب- واستغنى عن كثير من الولاة الذين أساؤوا التصرف، وخالفوا أمر الله تعالى، وتخطوا منهجه الأقوام الذي ارتضاه لعباده..

ج- ثم بادر إلى تبني سياسة المساواة في توزيع المال والحقوق، منهياً بذلك دور الطبقية والتمييز والأثرة:

«المال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد»(٦).

«إلا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة، إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!»(٧).

وتبنى الإمام سياسة العدل الشامل:

- في معاملة أفراد الأمة.

- وفي منهج الحقوق.

وفي توزيع المسؤوليات.

وكان منهج الإمام (عليه السلام) في العدل لا يناظره إلا منهج رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن لم نقل أنه منهج الرسول (صلى الله عليه وآله) بالذات.

فهلم نضع إلى منهاجه المتبني في سياسة الأمة من خلال حديثه (عليه السلام). «.. والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجر في الإغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، غاصباً لشيء من الحطام.. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وأن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي، ونعيم يفني ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»(٨).

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له»(٩).

«وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً...»(١٠).

ولم تكن هذه المبادئ التي يتحدث عنها الإمام (عليه السلام) ذاته، أمنيات وأفكاراً طرحها في دنيا المبادئ والأفكار، وإنما جسدها واقعاً حياً قبل أن يطرحها فكراً..

وهي خصيصة من خصائص علي (عليه السلام) فالقول عنده يعقب العمل أو يجري من طبيعته..

ومن أجل ذلك ملأ الإمام (عليه السلام) دنيا المسلمين قسطاً وعدلاً وحقق انقلاباً في واقع المسلمين على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفقاً لمقتضيات العدل الإلهي فأعاد بذلك أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله) في صفائها وإشراقها وعدلها الشامل..

فحسبك أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يرتدي القميص المرقوع(١١) ويبالغ في رقع مدرعته كلما تمزق جانب منها حتى يبلغ الأمر بالإمام (عليه السلام) أن يستحي من راقعها(١٢).

وكان يخرج إلى السوق ليبيع سيفه كي يشتري بثمنه أزراراً(١٣) وهو في علو شأنه وعظمة مركزه الذي يحتل في دنيا المسلمين حيث تجبى إليه الأموال من أقاليم الدولة الإسلامية جميعها، وثروات الدولة تحت تصرفه..

وكان يأكل خبز الشعير بنخالته وكان غالب أدامه اللبن أو الملح والماء..

ولم يكن للإمام (عليه السلام) غير قميص واحد لا يجد غيره عند غسله(١٤).

ومع شدة زهد الإمام (عليه السلام) في الدنيا، فقد كان حريصاً على توفير الرفاه الاقتصادي للأمة التي اضطلع بقيادتها، فكان يقسم الذهب والفضة بين الناس، ويطعمهم اللحم والخبز(١٥) ويعمل كل ما في وسعه لرفع غائلة الفقر عنهم.

- وكان بيت المال لا يكاد ترد إليه الأموال حتى يبادر الإمام (عليه السلام) إلى توزيعها على الناس، لإعطاء كل ذي حق حقه.

- وكان منهاجه في توزيع المال التزام أقصى درجات العدالة..

فها هو يخاطب الزبير وطلحة حينما كبر عليهما منهاج المساواة في العطاء «.. فوالله ما أنا وأجيري هذا إلا بمنزلة واحدة»(١٦).

وها هو سهل بن حنيف يخاطبه: يا أمير قد أعتقت هذا الغلام، فأعطاه ثلاثة دنانير مثل ما أعطى سهل بن حنيف»(١٧).

ويأتيه عاصم بن ميثم –وكان الإمام (عليه السلام) يقسم أموالاً– فقال:

- يا أمير المؤمنين إني شيخ مثقل.

فقال الإمام (عليه السلام):

والله ما هي بكد يدي ولا بتراثي عن والدي، ولكنها أمانة أوعيتها(١٨).

وجاءه عبد الله بن زمعة -وهو من شيعته- يطلب منه مالاً.

فقال له الإمام (عليه السلام):

- إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء المسلمين وجلب أسيافم، فإن شركتهم في حربهم كان لك أسيافهم مثل حظهم، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم(١٩).

ويدخل عليه عمرو بن العاص ليلة وهو في بيت المال يتولى بعض شؤون المسلمين، فأطفأ الإمام (عليه السلام) السراج وجلس في ضوء القمر(٢٠)، فالسراج ملك الأمة، فلا يصح أن يستضيء به ابن العاص، وهو في زيارة خاصة للإمام (عليه السلام)!

حرص فريد على أموال الأمة، وسهر دائم على مصلحتها وعمل دائم من أجل إسعادها وهدايتها وإصلاح شأنها.

على أن تعاهد أمر الأمة من لدن علي (عليه السلام) ليس محصوراً في إطار المال وتوزيعه وإنما يمتد لكي يشعر الإنسان بكرامته ويعيد وعيه بحقه في الحياة الحرة الكريمة، ويعلمه أن يتمرد

على الظلم والكبت وسلب الإرادة:

- «لاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً».

- «أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والإحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول، فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»(٢١).

- فلا تكلموني بما تكلم الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بين استثقالاً في حق قيل لي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه! فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل(٢٢).

وتمتد ظلال العدالة في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) فيرعى أسواقهم من ناحية المكاييل والمعروض من السلع وطبيعة المعاملات فيها، فيخرج كل يوم يتفقد أسواق المسلمين بنفسه فيرشد الضال، ويهدي المقصر إلى طريق الحق، ويأمر بكل معروف، وينهى عن المنكر...(٢٣).

ولشدة حرص الإمام (عليه السلام) على تطبيق العدالة الإسلامية بأروع صورها في دنيا الناس، وعلى شتى الأصعدة أنه وجد درعه عند رجل نصراني، فوقف معه أمام القاضي ليقاضيه في الأمر.

فقال الإمام (عليه السلام): إنها درعي، ولم أبع، ولم أهب.

فسأل القاضي الرجل النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال الرجل: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت القاضي للإمام (عليه السلام): طالباً بينة تشهد أن له الدرع.

فضحك الإمام (عليه السلام) معلناً أنه لا يملك بينة من ذلك النوع. فقضى القاضي بأن الدرع للنصراني، فأخذها ومضى، والإمام ينظر إليه.

إلا أن الرجل عاد وهو يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاض يقضي عليه..

- الدرع -والله- درعك يا أمير المؤمنين، وقد كنت كاذباً فيما ادّعيت(٢٤).

وحصيلة الأمر أن يعلن الرجل إسلامه ويخلص في الوقوف تحت راية الإمام (عليه السلام) مؤمناً

مجاهداً ذائداً عن رسالة الهدى..

وبقدر ما كان الإمام (عليه السلام) حريصاً على تجسيد روح العدالة التي صدع بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لإخراج الإنسان من ظلام الظلم والقهر والكبت، كان حريصاً كذلك على إلزام ولاته وقضاته وقادة جيوشه، وجباة الأموال بالتزام العدل في معاملة الناس، وتحري الحق في الحكم والقضاء وإعطاء الحقوق، وفي جمع المال وحتى في حالات الحرب وسواها..

وصايا للولاة:

وهذه بعض وصاياه في هذا المضمار:

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار(٢٥).

«أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده..»(٢٦).

ومن توجيهاته (عليه السلام) لجباة الأموال:

«.. انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً، ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض -بالسكينة والوقار- حتى تقوم بينهم، فتسلم عليهم، ولا تخدع بالتحية لهم، ثم تقول:

عبـــاد الله أرسلني إليكم ولي الـــله وخليفته لآخذ منكم حـــق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق، فتؤدوه إلى وليه..»(٢٧).

«إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منه العفو»(٢٨).

ومن تعليماته لجيوشه:

ولقد كان (عليه السلام) يوصي جنوده في حالات الحرب بألا يبدأوا بقتال العدو، حتى يبدأهم بالحرب، ولا يقتلوا من ولي دبره عن قتالهم، ولا يقتلوا الجريح ومن عجز عن حماية نفسه أثناء

الحرب، ولا يؤذوا النساء بشيء حتى وإن بدأن بسب أو شتم(٢٩).

ونحو ذلك من وصاياه (عليه السلام).

أرأيت عدلاً رفيعاً كهذا العدل؟

بل هل حدثك التاريخ الإنساني عن رجل يحب الخير حتى لخصومه الذين ناصبوه العداء؟

إنه علي (عليه السلام) صاحب القلب الكبير، الذي شمل الناس بحب غامر، فبسط لهم العدل في حياتهم، وأشعرهم بحقيقة الكرامة الإنسانية ووفر لهم غطاء من الأمن والاستقرار في جو الشعور بالمساواة والحياة الحرة الكريمة.

ثانياً – تواضع الإمام

خلق التواضع في معاملة الناس، بقدر ما يكون عبادة إسلامية يندب الشرع الإلهي إليها، كذلك يعبر عن إحدى صيغ التعامل الفاضل بين أبناء الأمة فهو من وسائل توحيد الكلمة وجمع الشمل، وإشاعة المودة وإلغاء التفاوت الطبقي.

ولقد كان الإمام علي (عليه السلام) مثلاً أعلى في تواضعه كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) من قبل.

وسيرته العطرة تطرح المزيد من الشواهد على ذلك الخلق الإسلامي الرفيع:

فعن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: «كان أمير المؤمنين يحطب ويستسقي ويكنس، وكانت فاطمة تطحن تعجن وتخبز»(٣٠).

وكان الإمام (عليه السلام) يشتري حاجته وحاجة أسرته الكريمة من السوق بنفسه، ويحملها بيده، وهو أمير المؤمنين، ويحظى باحتلال أرفع مركز في حياة المسلمين، ولقد كان الناس يسرعون إليه لحمل أشيائه حين يرون ذلك منه، ولكنه يأبى عليهم ويقول: رب العيال أحق بحمله(٣١).

وكان (عليه السلام) يسير في الأسواق وحده، لا يصحبه حشم ولا خدم، ولا جند، فيرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبقالين والتجار ويأمرهم بالتواضع وحسن المعاملة ويتلو عليهم قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة

للمتقين)(٣٢).

ومن عظيم تواضعه (عليه السلام) أنه خرج يوماً على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال:

- ألكم حاجة؟ قالوا:

- لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحب أن نمشي معك.

فقال لهم:

- «انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي»(٣٣).

وقد استقبله زعماء الأنبار وترجلوا وأسندوا بين يديه فقال (عليه السلام):

- ما هذا الذي صنعتموه؟ قالوا:

- خلق منا نعظم به أمراءنا.

فقال (عليه السلام):

- «والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون به على أنفسكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وما أربح الراحة معها الأمان من النار»(٣٤).

ومن تواضعه الجمّ أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه أبسط أنواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه(٣٥) ووقوفه بين يدي القاضي مع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الإمام (عليه السلام) بقيادته(٣٦).

ومن أدبه الكامل تسليمه على النساء(٣٧) من قومه، ومشيه مع المرأة لقضاء شأن من شؤونها حتى وإن جلب له الأمر مشقة، فعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال:

«رجع الإمام (عليه السلام) إلى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول:

إن زوجي ظلمني، واخافني، وتعدى علي..

فقال الإمام:

يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار ثم أذهب معك إن شاء الله، فقالت:

يشتد غضبه عليّ.

فطأطأ الإمام (عليه السلام) رأسه ثم رفعه وهو يقول:

لا والله أو يأخذ للمظلوم حقه غير متعتع! أين منزلك؟

ووقف الإمام (عليه السلام) على باب المنزل فقال:

السلام عليكم، فخرج شاب.

فقال له الإمام (عليه السلام):

يا عبد الله اتق الله، فإنك قد أخفتها وأخرجتها!

فقال الفتى:

وما أنت وذاك؟ فقال أمير المؤمنين:

آمرك بالمعروف، وأنهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر لمعروف؟

فأقبل الناس يلقون التحية على الإمام (عليه السلام):

سلام عليكم يا أمير المؤمنين.

فأسف الشاب على ما كان منه وهو يقول:

يا أمير المؤمنين أقلني عثرتي، فوالله لأكونن لها أرضاً تطوّني.

فالتفت الإمام إلى المرأة قائلاً:

يا أمة الله ادخلي منزلك ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه»(٣٨).

وكان الإمام (عليه السلام) قريباً سهلاً هيناً يلقى أبعد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف، ولم يحط نفسه بالألقاب ولا زخرفة الملك، بل كان يتعامل مع الأمة كفرد منها، يعيش مشاكل الضعفاء، ويحب المساكين، ويتودد للفقراء، ويعظم أهل التقوى من الناس.

ولقد كان من شواهد رفقه بالأمة وتواضعه في المعاملة وسهولته، ومرونته: مقابلته لمن يلقاه بالبشر وطلاقة المحيا والابتسامة الحلوة وبشر الوجه، إلغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والأمة، وإنهاء لدور الزخرفة والألقاب التي يحيط بها الأمراء والقادة أنفسهم عبر تعاملهم مع الناس.

ولاشتهارِهِ بتلك الروح الاجتماعية السمحة بين عامة الناس حاول أعداؤه أن يشوهوا تلك الميزة في الإمام (عليه السلام) ويحولوها إلى عيب ينبزونه فيه إمعاناً منهم في تشويه واقع سياسته وجميل صفاته الشخصية والاجتماعية.

فعمرو بن العاص يحدث أهل الشام عن علي (عليه السلام) فيقول: إنه ذو دعابة شديدة(٣٩) محاولاً الانتقاص من شأن الإمام (عليه السلام) والإمعان في تغطية فضائله، والعمل على كل ما

من شأنه تضليل الناس هناك لكي يحال بينهم وبين التطلع لواقع الإمام (عليه السلام) وحقيقته.

حتى أن الإمام (عليه السلام) حين بلغه افتراء ابن العاص قال: «عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن في دعابة وإني امرؤ تلعابة»(٤٠).

ولقد كان معاوية بن أبي سفيان يشيع ما يشيعه ابن العاص كذلك في مناسبة وأخرى.

وما يضير أمير المؤمنين (عليه السلام) إذا عابه معاوية وابن العاص، فلقد كان (عليه السلام) يقتفي أثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سماحة أخلاقه وطلاقة محياه سواء بسواء.

وكان (عليه السلام) يعمل على الالتصاق بالناس للتعرف على ما يعانون حتى أنه كان يمشي في الأسواق ويتابع الحركة التجارية من ناحية الوزن والأسعار ونوعية المعروض من السلع ــكما ألمحنا إليه قبل قليل.

وكان الإمام (عليه السلام) حريصاً على متابعة تصرفات الولاة في البلدان، والقادة وجباة الأموال، ويأمرهم بالرفق والتواضع في معاملة الناس.

وما أروع روح التواضع عند علي (عليه السلام) كما يصفها ضرار ابن ضمرة في حديثه لمعاوية - الذي افتتحنا به هذا الفصل- «يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب.. كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه.. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين»(٤١).

ثالثاً: حلم الإمام

ولقد كان الإمام (عليه السلام) قمة في حلمه وعفوه عمن يسيء الأدب معه فهو لا يعرف الغضب إلا حين تنتهك للحق حرمته أو تتعدى حدود الله تعالى، أو يتعدى على حقوق الأمة وتضر مصلحتها.

وخلق الإمام (عليه السلام) في الحلم والصفح عن المسيء ظل هو هو لم يتغير، فعلي (عليه السلام) في صفحه وحلمه قبل خلافته، كعلي في صفحه وعفوه أيام قيادته المباشرة للأمة، على أن عظمة الإمام (عليه السلام) تزداد قوة وجلاء حين يظل يصفح ويمعن في عفوه حتى عن أشد خصومه في وقت يمتلك القدرة على العقاب والإرهاب والقتل.

فهو في أيام خلافته في مركز يؤهله أن يقتص من خصومه، فهو رئيس الدولة، والمطاع الأول بين أتباعه غير أنه مع هذا وذاك ظل يحمل نفس الروح من العفو والتجاوز كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) سواء بسواء.

وهذه نماذج من عفوه:

- أسر مالك الأشتر (رضي الله عنه) مروان بن الحكم يوم الجمل فلما مثل مروان بين يدي الإمام (عليه السلام) لم يستقبله بسوء قط، وإنما عاتبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب(٤٢) ثم أطلق سراحه ومروان هو هو في حقده على الإسلام والإمام (عليه السلام)، وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الإمام (عليه السلام) أشهر من أن نذكره، فهو الذي عارض البيعة للإمام (عليه السلام) وهرب من المدينة المنورة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة، وألهب الناكثين وأغراهم بالتعجيل بها.. إلى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

- ولقد عفا الإمام (عليه السلام) كذلك عن عبد الله بن الزبير(٤٣) بعد أسره يوم الجمل، وعبد الله بن الزبير هو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

- وجيء بموسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفاً في فتنة الجمل فلما وقف بين يدي الإمام (عليه السلام) خلى سبيله، ولم يعنفه عن دوره في الفتنة، وإنما طلب منه أن يستغفر الله ويتوب إليه ثم قال:

اذهب حيث شئت، وما وجـــدت لك في عسكـــرنا من سلاح أو كراع فخـــذه، واتق الله فيما تستقبله من أمرك واجلس في بيتك(٤٤).

ومن عظيم عفوه ما رواه الإمام الباقر (عليه السلام) قال: «كان علي (عليه السلام) إذا أخذ أسير في حروب الشام أخذ سلاحه ودابته واستحلفه أن لا يعين عليه»(٤٥).

أرأيت موقفاً إنسانياً كهذا الموقف؟

لقد كان الإمام (عليه السلام) مدركاً أن الذين يقاتلونه من أهل الشام إنما يقاتلونه وهم عن حقيقته غافلون، فقد أغراهم معاوية بالمال، وسد عليهم منافذ التفكير والوعي على الحقائق بما استخدمه من وعاظ وسوء وواضعي حديث ممن باعوا ضمائرهم للانحراف صوب الجاهلية.

وبناء على هذا الوعي العلوي لحقيقة مقاتليه ممن أغراهم معاوية وغرر بهم، فقد سبق حلم الإمام (عليه السلام) عدله في معاملتهم فلم يعاقب من اتخذ منهم أسيراً، وإنما يجرده من أداة الشر، ويضعه أمام الله والضمير كي لا يعود لقتال معسكر الحق الذي يقوده الإمام (عليه السلام).

ويذكرنا هذا الموقف الكريم بموقف معاوية وعمرو بن العاص اللذين كانا يصران على قتل الأشراف من جيش الإمام (عليه السلام)، بيد انهما خشيا الفضيحة إذا أقدما على ذلك بعد أن خلى الإمام (عليه السلام) عن أسراهم ابتداء فعدل معاوية وصاحبه عن موقفهما لا لطيب خلق منهما، وإنما خشية نقمة الرأي العام الإسلامي(٤٦).

ولم نذهب بعيداً وتلك معركة صفين تحمل أحداثها الكثير الكثير من مواقف الصفح العلوي.. فحين سبق جيش معاوية إلى ماء الفرات أصر على منع الماء عن جيش علي (عليه السلام).. فأوفد الإمام (عليه السلام) لمعاوية وفداً كي يغير موقفه. ولكنه مضى في إصراره وموقفه اللاأخلاقي... فاضطر الإمام (عليه السلام) لتحريك قوة من جيشه لفك الحصار. وكانت النتيجة أن سيطر جيش الإمام (عليه السلام) على الماء.. ولكن علياً حمله حلمه الرفيع وكرم نفسه على بذل الماء لخصمه قائلاً لجنوده:

«خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم. وخلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم»(٤٧).

ولقد كان مقدراً للإمام (عليه السلام) أن يذيقهم الهزيمة الشاملة لو أنه منعهم الماء وحال بينهم وبينه، ولكنها الأخلاق الإلهية التي يتمسك بها ويجسدها حية في دنيا الناس تأبى عليه ذلك اللون من المواقف..

حتى يقع التمييز الحاسم بين منهج الهدى والصراط المستقيم في الفكر والعمل الذي يمثله علي (عليه السلام) وبين سبيل الانحراف والالتواء واللاأخلاق التي يجسدها معاوية بن أبي سفيان..

ولنا أن نعرض شواهد من حلم الإمام (عليه السلام) وعظيم صفحه في حياته الخاصة كذلك:

- «دعا الإمام (عليه السلام) غلاماً له مراراً فلم يجبه، فخرج فوجده على باب البيت فقال:

ما حملك على ترك إجابتي؟ قال:

كسلت عن إجابتك، وأمنت عقوبتك. فقال (عليه السلام):

الحمد لله الذي جعلني ممن يأمن خلقه، أمض فأنت حرّ لوجه الله»(٤٨).

- وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله«.. قاتله الله كافراً ما أفقهه!».

فوثب أصحاب الإمام (عليه السلام) ليقتلوه.. فقال الإمام (عليه السلام):

رويداً إنما هو سبحانه سب أو عفو عن ذنب(٤٩).

وهكذا شمل الرجل بعفوه، وحال بين القوم وبين معاقبته.

هذا وفي سيرة الإمام (عليه السلام) الكثير من مثل هذه المواقف التي تعبر عن خلق إلهي كريم أطرت به شخصية علي (عليه السلام)، على أننا لو غضضنا الطرف عن كافة مواقف الحلم التي اصطبغت بها حياة علي (عليه السلام) بالنسبة إلى المسيئين له أو أعدائه لكان في موقف الإمام (عليه السلام) من قاتله ابن ملجم المرادي أعظم شاهد على تمتع الإمام (عليه السلام) بنمط من الأخلاق السامية لم يتمتع بها سوى الأنبياء والمقربين من البشر، فهل أنبأك التاريخ عن إنسان عامل عدوه بنفس الروح التي عامل بها علي (عليه السلام) قاتله، لقد شدد الإمام (عليه السلام) على أهل بيته أن يطعموا قاتله ويسقوه ويحسنوا إليه فعن الإمام الباقر (عليه السلام) وهو بصدد ذكر إحدى وصايا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في آخر حياته يقول:

أن علي بن أبي طالب عليه السلام.. قال للحسن والحسين (عليهما السلام): «احبسوا هذا الأسير –يعني ابن ملجم المرادي– وأطعموه واسقوه، وأحسنوا إساره فإن عشت فأنا أولى بما صنع في، إن شئت استقدت وإن شئت صالحت، وإن مت فذلك إليكم، فإن بدا لكم أن تقتلوه فلا تمثلوا به»(٥٠).

رابعاً: التورع عن البغي

والتورع عن البغي أصل من أصول نفسية الإمام (عليه السلام) وخلق من أخلاقه الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التقوى التي يمتاز بها، فهو يتحاشى البغي حتى على أشد الناس خصومة له وللحق الذي هو عليه، وحتى إذا بغى عليه يبقى مصراً على التزام خطه في النأي عما له صلة بأي لون من ألوان البغي..

ومن أجل ذلك كان الإمام (عليه السلام) داعية السلم الأكبر، مع كثرة الشغب والفتن التي أثارها بعض الناس في طريق مسيرته الإصلاحية:

- بذل كل ما في وسعه أن يجنب الأمة المسلمة سفك الدماء وتمزق الصف، حين ألح على الزبير وطلحة أن يعدلوا عن موقفهم، سواء من خلال المراسلة، أم الوفود أم اللقاءات الشخصية المباشرة مع الزبير وطلحة(٥١).

ولقد بلغ الأمر بالإمام (عليه السلام) حين التقى الجيشان في البصرة

أن يدعو الزبير فيخرج الإمام (عليه السلام) بلا سلاح، ويعانقه طويلاً! وربما بكى علي (عليه السلام) في ذلك الموقف، ثم عاتب الزبير على خروجه لقتاله، وذكره بعلائق المودة القديمة بينهما كما ذكره بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهما: «أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (صلى الله عليه وآله) يا زبير أتحب علياً، فقلت وما يمنعني من حبه، وهو ابن خالي؟

فقال (صلى الله عليه وآله): أما أنك ستخرج عليه وأنت له ظالم.

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك(٥٢).

وحين أفلت الزمام وأصر الناكثون على إشعال نار الحرب بقي الإمام (عليه السلام) عند موقفه الرافض للبغي والعدوان، فلنصغ إليه وهو يخاطب جنوده: «أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبياً ولا تأخذوا سلاحاً، ولا متاعاً»(٥٣).

وحتى بعد انتهاء المعركة بقي الإمام (عليه السلام) عند موقفه النائي عن العدوان فأعلن العفو العام عن جميع المشتركين في حربه: القيادات والقواعد على حد سواء(٥٤).

- وذاك الخلق العلوي تجلى في حوادث صفين من بدايتها إلى نهايتها: يقطع البغاة عن طريق الوصول إلى الماء وهو في حيويته لجيش مقاتل كبير فلا يبادر لاستعمال العنف، بل يرسل الوفود، ويبذل المحاولات لتغير الموقف بالتي هي أحسن.. لكي لا تراق للمسلمين

دماء.. ولكن البغي الأموي الحاقد الذي يجسده قولهم «ولا قطرة حتى تموت ظماً»(٥٥). حمله على إصدار أوامره لقواته بالتحرك لكسر الحصار وهكذا كان.. وحين امتلك الماء أباحه لجيش عدوه منذ الساعة الأولى من سيطرة قواته عليه.

- ومع أصحاب النهروان بذل الإمام (عليه السلام) كل مسعى لأجل إبعاد الناس عن القتال، ولكن إصرارهم على قتال الإمام (عليه السلام) حال دون بلوغهم الصراط المستقيم فعاشوا في الأرض فساداً وقتلوا نفوساً بريئة، وأثاروا البلبلة في البلاد مما اضطر علياً (عليه السلام) إلى قتالهم،

ولكن بعد محاولات عديدة أيضاً لجمع الصف، ودعوات مستمرة لإقرار السلم وإلقاء السيف(٥٦).

وفي وصايا الإمام (عليه السلام) لجيوشه وجباة المال والولاة مؤشرات أخرى على التزام علي (عليه السلام) لمنهاج اللابغي واللاعدوان على أحد كائناً من كان ما ذكرنا منه طرفاً في الصفحات الماضية في هذا البحث.

- وما أعظم علياً أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو ينص في عهده لمالك الأشتر على وجوب التزام الرفق بالناس، وعدم التعامل بأي لون من ألوان البغي والتعالي على الناس، وغمط حقوقهم المفروضة في شرع الله العظيم «.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.

أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك،

ومن لك هوى فيه من رعيتك، فإنك إن لا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله دحض حجته، وكان الله حرباً حتى ينزع، ويتوب»(٥٧).

ولم يكن منهاج علي (عليه السلام) هذا خاصاً بأهل مصر، وإنما هو منهاجه الشامل لكل البلاد التي رفرفت راية دولته الكريمة عليها.

- ولقد كان الإمام (عليه السلام) يعهد إلى ولاته في الأمصار مثل الذي عهده إلى مالك (رضي الله عنه) في وجوب إشاعة العدل، والرفق بالناس، وعدم البغي عليهم بحال من الأحوال أو معاملتهم بأي لون من ألوان الظلم..

ولقد طرحنا بعضاً من وصاياه للولاة فيما مضى من حديث.

خامساً: شواهد من صبر الإمام

وقوة الإرادة والروح العالية في مواجهة مصاعب الحياة ركن أساسي في شخصية علي (عليه السلام) وقد لا نغالي إذا اعتبرناها قاعدة للكثير من مواقف الإمام (عليه السلام) في حياته العملية، مما ذكرناه أو مما لم نذكره، فشدة تعلقه بالله وكثرة عبادته، وتورعه عن البغي وزهده في الحياة الدنيا، وصفحه عمن يسيء إليه وغيرها مؤشرات ضخمة على تسلح الإمام (عليه

السلام) بصبر لا يعرف الهزيمة ولا النكوص عن القصد بشكل جعل الإمام (عليه السلام) وكأنه الصبر صار إنساناً.

ومع أن تلك المواقف والممارسات تمنح الدليل تلو الدليل على حجم الصبر الذي يتمتع به الإمام (عليه السلام) فإنه من المناسب أن نذكر إلى جانب ذلك مواقف وأحداث جرت في حياة علي (عليه السلام) وقد آثر الصبر، ورباطة الجأش التي امتاز بها الإمام (عليه السلام) في طرحها في دنيا الواقع..

- فحين أجمعت قريش في دار الندوة على قتل المصطفى (صلى الله عليه وآله) من خلال عملية جماعية يتولاها من كل قبيلة شاب قوي ليذهب دم الرسول (صلى الله عليه وآله) هدراً بزعمهم دون أن تستطيع بنو هاشم –عشيرة النبي– أن تطالب بدمه..

حين أجمع رؤوس الشرك على تدبير ذلك الجرم، أنبأ الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وآله) بأمرهم:

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (الأنفال/ ٣٠).

وأمره تعالى بوجوب الهجرة إلى دار الإسلام «يثرب» فخرج (صلى الله عليه وآله) مهاجراً بعد أن ترك علياً (عليه السلام) في فراشه ملتحفاً ببردته فقضى الإمام (عليه السلام) ليلته في فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) دون أن يكترث بما حوله من مكر مبيت. فلقد كان محتملاً أن ينقض أولئك الأوغاد على الإمام (عليه السلام) بسيوفهم دون رحمة، مدفوعين بالحقد الجاهلي الأسود البليد، دونما أقل اكتراث، ظناً منهم أنه الرسول (صلى الله عليه وآله)، والإمام (عليه السلام) كان يتوقع ذلك منهم، ولكن إرادة علي ورباطة جأشه المعروفة المستمدة من الثقة المطلقة بالله والإيمان الكامل بقدره وقضائه تعالى وقوة صبر الإمام (عليه السلام) على مواجهة المصاعب والأحداث قد حملته على أن يسخر بما يبيتون، حتى إذا طلع هجم القوم على حجرة الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) فيها وهم يظنون أنه رسول الله (صلى الله عليه وآله).. فواجههم الإمام (عليه السلام) بصلابة إرادته المعهودة:

ما شأنكم؟ قالوا:

أين محمد؟ قال:

أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا، فقد خرج عنكم!!

هكذا يخاطب الإمام (عليه السلام) المتآمرين بمنتهى الصبر والإباء والصرامة ساخراً بأولئك الأوباش.

إنه موقف شجاع تتصاغر أمامه إرادة الأبطال من الرجال!

وبتلك الإرادة بقي الإمام (عليه السلام) في مكة بعد هجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) يواجه مسؤولياته في تنفيذ وصايا الرسول (صلى الله عليه وآله) وأداء كافة المهمات المناطة به.

- وفي يوم هجرته خرج الإمام (عليه السلام) جهاراً يقود قافلة المهاجرات من أهل البيت: فاطمة الزهراء، وفاطمة بنت أسد وسواهما، فجرت محاولة من المشركين للحيلولة دون هجرته، ولكن إرادة علي (عليه السلام) وقوة تحمله للعقبات أفشلت المحاولة، فلم يعبأ بالفرسان الثمانية الذين أرسلوا لاعتراض سبيله، فواجههم بسيفه، وأهوى به على قائدهم بضربة قاضية، تحول الرجل بعدها إلى جثة هامدة يخور بدمه في تلك الفلاة من الأرض، ففر الباقون مخلفين قائدهم في الميدان(٥٨)..

وفي دار الهجرة واجه الإمام (عليه السلام) مسؤولياته العظيمة كجندي من جنود الرسالة في الرعيل الأول، فأبدى (عليه السلام) من قوة الإرادة ومضاء العزيمة والقدرة على مواجهة المصاعب ما يعد مفخرة يعتز بها إنسان الإسلام بامتداد وجوده التاريخي، فالإمام (عليه السلام) عبر المعارك الهجومية

والدفاعية –التي خاضها رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أجل نشر الرسالة الإلهية أو حماية وجودها العملي في حياة الناس– كان قطب رحاها الخائض المقدام لغمراتها الذي لا تأخذه في الله لومة لائم من أجل إخماد طغيان الشرك والمشركين وكافة أعداء الرسالة المتربصين، فما من حرب تسعر وما من معركة تدور رحاها إلا دعي علي (عليه السلام) لإخماد فتنتها وتنكيس رايات الجاهلية فيها: في بدر، وأحد والأحزاب، وحنين، وخيبر.. و..

وفي كثير من المواقف يسود الهلع في معسكر المسلمين، ويستبد الوهن والنكوص عن مواجهة العدو، فيعيد سيف علي (عليه السلام) الثقة للنفوس ويجدد في معسكر الإيمان روح القدرة على المواجهة وصد العدوان..

الأمر الذي يكشف عما يتمتع به الإمام (عليه السلام) من نفس كبيرة تعلو على كل وهن، وتسخر

بكل ضعف، وترتفع فوق كل ذلة وهوان.. إنها قوة الإرادة.. ومضاء العزيمة وشدة الصبر على المكارة مقرونة باليقين العميق بالله تعالى، والاستمداد منه والتوكل عليه دون سواه.

وقد تولى الإمام (عليه السلام) الخلافـــة في ظروف صعــبة دقيقة على مضض، وبعد محاولات عديدة من الرفض لـــها من قبله(٥٩)، وما أن عقدت له البيعة حتى نكث قوم وقسط آخرون، ومرق غيرهم، كل ذلك من أجل أن يحال بين الإمام (عليه السلام) وبين استئناف المسيرة الإسلامية التي بدأها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولقد تحمل أمير المؤمنين (عليه السلام) ما تحمل من الآلام والمشقات في سبيل إخماد الفتن السوداء التي أثارها أصحاب المنافع الشخصية

وأصحاب المصلحة من سياسة الانحراف، في طريق مسيرته الإصلاحية، فقابل كل ذلك بالصبر الجميل، وبالتسليم لقضاء الله تعالى، حتى رحل إلى ربه الأعلى شهيداً مثقلاً بالمتاعب والآلام.

- وإذا تركنا تلك الأمور جانباً وألقينا نظرة على جوانب أخرى من حياة الإمام (عليه السلام) لنحدد مواقع الصبر والإرادة الصلبة لما صح أن تفوتنا مواقف الصبر التي وقفها أمير المؤمنين (عليه السلام) حين يفارق أحبته ورفاق الدرب، وأولهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي فاضت نفسه الشريفة في حجر الإمام (عليه السلام)(٦٠). وواراه الثرى بنفسه، وعاش مأساة فراقه بكل أبعادها، وها هو يخاطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يلي غسله وتجهيزه بكلمات حزينة تدمي القلب وتزرع الأسى: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء. خصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك؟ وعممت حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، ولا نفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً، وقلاّ بك، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه! بأبي أنت وأمي. أذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك»(٦١).

وإذا أعدنا إلى الأذهان ما يحظى به رسول الله (صلى الله عليه وآله) من حب وتعظيم في نفس أمير المؤمنين (عليه السلام) لأدركنا حجم الأسى الذي صب على الإمام (عليه السلام) بفقده (صلى الله عليه وآله)، فعلي (عليه السلام) قد حظي بتربية الرسول (صلى الله عليه وآله) ورعايته وإعداده ومصاحبته منذ الصبا حتى فارق رسول الله الدنيا.

ولقد كانت تلك التربية وتلك الأخوة بينهما مليئة بضروب الود والحنان والوفاء والإخلاص مما

ليس له نظير(٦٢).

على أن الإمام (عليه السلام) التزم جانب الصبر راضياً بقضاء الله المحتوم في رسول الله (صلى الله عليه وآله).

- وفي خضم الأحداث المريرة التي عاشها أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الفترة، ألمت بالزهراء سيدة نساء العالمين العلة التي توفيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها حيث كان الإمام (عليه السلام) طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة (عليها السلام) يعيش ما تعاني بملء كيانه، فهي وديعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومدرسة الإمامة التي خرجت قادة الأمة الهداة (عليهم السلام) وهي الصابرة المحتسبة وهي بعد ذلك زوجته الوفية التي عاشت معه آماله وآلامه طوال حياتها معه..

لقد رأى الإمام (عليه السلام) زهراء الإسلام، بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله): وهي تعيش مرارة الأسى ثم وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها، وتتردى أوضاعها الصحية يوماً بعد يوم، ثم يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها ودفنها عليها السلام، ثم يقف على شفير قبرها مودعها بعبارات تذيب القلوب الحديدية «السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك! قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، إلا أن في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعز، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك «فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة! أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودع، ولا قال، ولا سئم، فإن انصرف، فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين(٦٣).

فالنتيجة أن الإمام (عليه السلام) استسلم لقضاء الله تعالى واستعان على الأسى بجميل الصبر.

وكما صبر الإمام (عليه السلام) لفقد رسول الله (صلى الله عليه وآله) والصديقة الزهراء (عليها السلام)، تجمل بالصبر كذلك لفقد أخوة له في الله، انقطعوا إليه في الوفاء وبذلوا أرواحهم وكل ما يملكون في سبيل رسالة الله تعالى، وقد تصدوا لهدم الباطل، وواجهوا الانحراف، فاستشهدوا في ساحات الجهاد كعمار بن ياسر ومالك بن التيهان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري

ومالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر وسواهم.

وها هو الإمام (عليه السلام) يذكرهم قبل اغتياله بأيام في خطبة له جاء فيها (.. أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار، وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة.

«ثم أطال البكاء» وقال:

«أوه على إخواني الذين تلو القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه..»(٦٤).

ومن شواهد صبر الإمام (عليه السلام) كذلك رفضه للدنيا ولذاتها وتحمله لأذى الجوع، والتقشف وزهده بالمال حتى يبلغ به الحال أحياناً أن يشد حجر المجاعة(٦٥)، على بطنه، ولقد رأيت في حديثنا عن زهده وعدالته(٦٦) ما يغنيك عن تعداد شواهد أخرى من قوة تحمله وإرادته في مواجهة المشقات وعقبات الحياة.

وهكذا عاش الإمام (عليه السلام) حياة مليئة بالكدح والآلام، زاهرة بالرزايا، حافلة بالمحن، غير أنه واجهها جميعاً بقوة صبره، وعظيم إرادته التي لا تقهر.

١ - تذكرة الخواص ص١٢٧ - ١٢٨ والإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص١٢. تشوقت: تزينت.

٢ - راجع القسم الثالث من سيرة المصطفى (صلى الله عليه وآله) للمؤلف.

٣ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٥.

٤ - نهج البلاغة ص١٣٦ تبويب صبحي الصالح. المحجة: الطريق، تنكرت: تغيرت علائمها وأصبحت مجهولة.

٥ - نفس المصدر.

٦ - نفس المصدر.

٧ - نفس المصدر.

٨ - نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح رقم النص ٢٢٤.

حسك: شوك.

السعدان: نبت ضائك ترعاه الإبل.

٩ - روائع من نهج البلاغة ص١٢٣.

١٠ - نهج البلاغة رقم النص ١٣٦.

١١ - تذكرة الخواص ص١٢٥.

١٢ - تذكرة الخواص ص١٢٥.

١٣ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٠٠.

١٤ - المناقب للمازندراني ج٢ ص٩٧ عن أحياء العلوم للغزالي.

١٥ - من حديث للإمام الصادق (عليه السلام) البحار ج٤٠ ص٣٣٠.

١٦ - مناقب ابن شهر أشوب ج/ ١ ص٣٧٨.

١٧ - المصدر السابق نفسه.

١٨ - نفس المصدر السابق ص٣٧٧.

١٩ - البحار ج٤١ ص١١٥ ونهج البلاغة رقم النص ٢٣٢.

٢٠ - المناقب ص٣٧٧.

٢١ - نهج البلاغة رقم النص ١٣١.

٢٢ - نهج البلاغة رقم النص ٢١٦.

٢٣ - راجع البحار ج٤١ ص١٠٤ للاطلاع على منهاجه في مراقبة حالة السوق.

٢٤ - علي وحقوق الإنسان - جورج جرداق ط بيروت ١٩٧٠ ص٨٧.

٢٥ - وصيته لعبد الله بن عباس حين ولاه البصرة رقم النص ٧٦ نهج البلاغة.

٢٦ - نفس المصدر - عهد الإمام (عليه السلام) لمالك الأشتر حين ولاه مصر. طيرة: خفة وطيش.

٢٧ - منهج البلاغة رقم النص ٢٥ - لا تخدع بالتحية: لا تبخل بها عليهم.

٢٨ - من وصيته لصاحب الخراج على القادسية وسواد الكوفة. انظر بحار الأنوار ج٤١ ص١٢٨ نقلاً عن الكافي، العفو الفاضل عن النفقة.

٢٩ - راجع نهج البلاغة رقم النص ١٤ وغيره.

٣٠ - مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٧٢.

٣١ - نفس المصدر نقلاً عن فضائل ابن حنبل.

٣٢ - المناقب ص٣٧٢ وبحار الأنوار: ج ٤١ ص٥٤.

٣٣ - البحار ص٥٥ عن المحاسن والكافي عن الصادق (عليه السلام).

٣٤ - المناقب ص٢٧٢ والبحار ج٤١ ص٥٥.

٣٥ - للتفاصيل راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة وبعضاً من فصول هذه الحلقة: كزهد الإمام (عليه السلام) وإقرار العدل.

٣٦ - بحار الأنوار ج٤١ ص٥٦ وعلي وحقوق الإنسان - جرداق ص٨٧.

٣٧ - الكافي ج٥ باب التسليم على النساء حديث رقم ٣.

٣٨ - مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٧٤.

٣٩ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٥.

٤٠ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٥.

تلعابة: كثير المرح واللعب.

٤١ - المناقب ج١ ص٣٨١.

٤٢ - المناقب ج١ ص٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣.

٤٣ - شرح نهج البلاغة ج١ ص٢٢.

٤٤ - بحار الأنوار ج٤١ ص٥٠ نقلاً عن النهاية.

الكراع: جمع الخيل.

٤٥ - المناقب ج١ ص٣٨١ عن ابن بطة والسجستاني.

٤٦ - الإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص٢٢٣.

٤٧ - نفس المصدر ص١٧٣.

٤٨ - المناقب ج١ ص٣٧٩.

٤٩ - نفس المصدر ص٢٨٠ وبحار الأنوار ج٤١ ص٤٩.

٥٠ - بحار الأنوار ج٤١ ص٢٠٦ باب ١٢٧.

٥١ - تذكرة الخواص ص٧٦.

٥٢ - الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص٦١ وفي تذكرة الخواص رواية مشابهة وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص١٧٦ مثلها.

٥٣ - الفصول المهمة ص٦٢ وتذكرة الخواص أيضاً.

٥٤ - راجع القسم الثاني من هذه الدراسة.

٥٥ - بحار الأنوار ج٤١ ص١٤٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١ ص٢٣.

٥٦ - راجع القسم الثاني من هذا الكتاب.

٥٧ - عهد الإمام (عليه السلام) إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر نهج البلاغة رقم ٥٣ ص٤٢٦.

٥٨ - الإمام علي رجل الإسلام المخلد - عبد المجيد لطفي ص٥٣ وأعيان الشيعة ج٣ ق١ ص١٥٦ - ص١٥٧.

٥٩ - يراجع القسم الثاني من هذا الكتاب.

٦٠ - مسند أحمد بن حنبل ج٢ ص٣٠٠ ومناقب الخوارزمي عن عائشة.

٦١ - نهج البلاغة من كلام له (عليه السلام) رقم ٢٣٥.

أنفذنا: أفنينا.

ماء الشؤون: منابع الدمع.

الداء مماطلاً: مماطلاً بالشفاء.

المد محالفاً: الحزن ملازماً.

قلا: محالفة الحزن ومماطلة الشفاء قليلان لك.

٦٢ - راجع القسم الأول من هذا الكتاب.

٦٣ - نهج البلاغة رقم النص ٢٠١.

التأسي: الاعتبار. هضم: ظلم.

الفادح: المثقل. إحفاء السؤال: الاستقصاء فيه.

التعزي: التصبر. القالي: المبغض.

ملحودة القبر: الجهة المشقوقة. السئم: الضجر.

مسهد: اشتد منه الأرق.

٦٤ - نهج البلاغة أواخر خطبة رقم ١٨٢.

أبرد برؤوسهم: أرسلت رؤوسهم بالبريد إلى الطغاة للتشفي منهم. أوه: كلمة توجع.

٦٥ - شرح النهج ج١ ص٢٢.

٦٦ - في القسم الثاني والثالث من هذا الكتاب.

حرب النهروان

بعد واقعة التحكيم عاد الإمام (عليه السلام) بجيشه إلى الكوفة.. ففوجئ بخروج طائفة من جيشه يبلغ تعدادها أربعة آلاف، معلنة تمردها على الإمام (عليه السلام) فلم تدخل معه الكوفة.. وإنما سلكت سبيلها إلى حركة وراء، فاتخذت مواقعها هناك...

ومن الجدير بالذكر أن الفئة التي خرجت على الإمام (عليه السلام) كان قوام أغلبها من الفئات التي أرغمته على التحكيم في حرب صفين(١).

فعند تمرد تلك الفئة وخروجها من جيش الإمام (عليه السلام) أعلنت مبررات خروجها تحت شعار «لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن تحكم الرجال في دين الله، قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا معنا في حكمنا عليهم، وقد كانت منّا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا، ورجعنا عن ذلك، فارجع –يقصدون الإمام (عليه السلام)– كما رجعنا، وإلا فنحن منك براء(٢).

بيد أن الإمام (عليه السلام) أوضح لهم حينئذ أن الخلق الإسلامي يقتضي الوفاء بالعهد –الهدنة لمدة عام– الذي أبرم بين المعسكرين قائلاً: «ويحكم، بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟» أوليس الله يقول «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون»(٣).

إلا أن المعارضة لم تصغ إلى توجيهات الإمام (عليه السلام) واستمروا في غيهم، وتعاظم خطرهم بعد انضمام أعداد جديدة لمعسكرهم، وراحوا يعلنون القول بشرك المنتمين إلى معسكر الإمام (عليه السلام) –بالإضافة للإمام– ورأوا استباحة دمائهم..

ولقد كان الإمام (عليه السلام) عازماً على عدم التعرض لهم ابتداء ليمنحهم فرصة التفكير جدياً بما أقدموا عليه، عسى أن يعودوا إلى الرأي السديد، ولكي يتفرغ كلياً لاستئناف القتال مع البغاة في الشام، بعد فشل التحكيم بعد اللقاء الثاني بين الحكمين، حيث تمت خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري التي أدت إلى عدم تحقيق التحكيم..

غير أنهم بدأوا يشكلون خطراً حقيقياً على دولة الإمام (عليه السلام) من الداخل.. وبدأ خطرهم

يتعاظم فقتلوا بعض الأبرياء، وهددوا الآمنين، فقتلوا الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وبقروا بطن زوجته وهي حامل مقرب دون مبرر.. وقتلوا نسوة من طي.

فلما بلغ أمرهم أمير المؤمنين (عليه السلام) أرسل إليهم الحارث بن مرة العبدي، ليتعرف على حقيقة الموقف، غير أنهم قتلوه كذلك(٤).

فلما علم الإمام (عليه السلام) بالأمر كرّ راجعاً من الأنبار –حيث كان قد اتخذها مركزاً لتجميع قواته المتجهة نحو الشام– وعندما اقتربت قواته منهم بذل مساعيه من أجل إصلاح الموقف دون إراقة للدماء، فبعث إليهم أن يرسلوا إليه قتلة المؤمنين عبد الله بن خباب والحارث العبدي وغيرهما وهو يكف عنهم، ولكنهم أجابوه: أنهم كلهم قتلوه..

وبعث الإمام (عليه السلام) إليهم الصحابي الجليل قيس بن سعد فوعظهم، وحذرهم مغبة موقفهم الأحمق... وأهاب بهم للرجوع عما يرون من جواز سفك دماء المسلمين وتكفيرهم دون وجه حق(٥)...

وتابع الإمام (عليه السلام) موقفه الإنساني الرشيد، فأرسل إليهم أبا أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) وبعد أن وعظهم، رفع راية ونادى: من جاء هذه الراية –ممن لم يقتل– فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن لا حاجة لنا به بعد أن نصيب قتلة إخواننا(٦).

وقد نجحت المحاولة إلى حد كبير حيث تفرقوا شيئاً بعد شيء حتى انخفض عددهم إلى أربعة آلاف إذ كان عددهم اثني عشر ألفاً.

وقد بدأ الباقون منهم الهجوم من جانبهم على جيش الإمام (عليه السلام) فأمر أصحابه بالكف عنهم حتى يبدؤوا بالقتال. فلما بدأ الخوارج القتال، طوقتهم قوات الإمام (عليه السلام) وتحقق الظفر لراية الحق.

وهكذا قضى الإمام (عليه السلام) في حرب النهروان على حركة الذين سبق لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أن سماهم بالمارقين حين أشار إليهم في حديث

رواه أبو سعيد الخدري قال «سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول يخرج في هذه الأمة قوم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»(٧).

١ - يوليوس فلهوزن/ الخوارج والشيعة ترجمة عبد الرحمن بدوي ط٢، ١٩٧٦ كويت ص٣٢.

٢ - وقعة صفين/ نصر بن مزاحم ط٢، ١٣٨٢ هـ ص٥١٧.

٣ - النحل/ ٩١ راجع وقعة صفين: نصر بن مزاحم ص٥١٧.

٤ - الفصول المهمة/ للمالكي ص٩١.

٥ - المصدر المتقدم ص٩٢.

٦ - أعيان الشيعة ج٣، ص٢٠ (عن الطبري) والفصول المهمة ص٩٣.

٧ - أخرجه البخاري في صحيحه نقلاً عن الفصول المهمة ص٩٤ أو البلاذري في أنساب الأشراف ج٢، ص٣٧٦ عن علي (عليه السلام) بلفظ آخر، وخصائص النسائي ص٧١.

في حقل المعرفة

إن محاولة الحديث عن دنيا المعرفة عند علي (عليه السلام) مهما أعطيت من التوفيق يستحيل عليها أن تحدد الفكر العلوي العظيم، وتحيط بأبعاد المعرفة التي طرحها الإمام (عليه السلام) في ساحة الفكر الإنساني، وحسبك أن كل مدرسة فكرية ظهرت في دنيا المسلمين، كل منها تدعي انتماءها فكرياً للإمام (عليه السلام) حتى وإن كانت مخالفة للواقع والحق، وكأن قولها بالاستمداد من علي (عليه السلام) يعطيها صفة الشرعية وحق الحياة، فالأشاعرة نسبوا أنفسهم له، والمعتزلة ادعوا الانتماء إليه، وزعمت مدرسة الرأي في الفقه انتماءها إليه، وذهب المتصوفة إلى أن أمامهم أمير المؤمنين فيما ذهبوا، وسوى هؤلاء كثير(١).

هذا فضلاً عن حملة مبادئه من الذين التزموا مذهب أهل البيت (عليهم السلام) الثقل الثاني بعد القرآن الكريم الذي ألزمت الشريعة بالتمسك بهما وسلوك دربهما على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله) «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»(٢).

فادعاء جميع المدارس الفكرية والفقهية انتماءها للإمام (عليه السلام) وانتهالها من بحر علمه مؤشر كبير على عظمة الإمام (عليه السلام) وعلو شأنه في دنيا الفكر الإسلامي. الأمر الذي لم يكن لأحد من المسلمين بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) طوال التاريخ الإسلامي.

فعلي (عليه السلام) قد تنازعته كل الحركات الفكرية والفقهية التي ولدت في تاريخ المسلمين، بل قال بالانتساب إليه أصحاب النشاطات الفكرية والثقافية والعلمية من نحويين وأهل القراءات وعلماء التفسير وأهل الحديث والفقه وسواهم على أن الانتساب لعلي (عليه السلام) في الحقل المعرفي أو ادعاء الانتساب إليه لم يأت عفواً أبداً، وإنما هو شاهد قوي على أن علياً (عليه السلام) لم يترك حقلاً من حقول المعرفة الصحيحة إلا ووضع أسسه وحدد معالمه وترك الباب مفتوحاً لرواد المعرفة أن ينتهلوا منه.

ولم يكن العطاء الفكري العظيم الذي أسداه الإمام (عليه السلام) للإنسان إلا حصيلة طبيعية للإعداد الخاص الذي توفر للإمام (عليه السلام) من لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله) منذ

طفولة الإمام (عليه السلام) حتى آخر ساعة من حياة الرسول (صلى الله عليه وآله). الأمر الذي تسالم المؤرخون على حقيقة وقوعه.

ولقد أشار الإمام (عليه السلام) ذاته إلى ذلك الإعداد الذي وفره له رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكشف عن أهميته وأبعاده في حياة الإمام (عليه السلام) بقوله «.. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه: ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطئة في فعل.. ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة»(٣).

ولاستمرارية ذلك الإعداد الخاص لعلي (عليه السلام) يشير أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) بقوله «كانت لعلي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخلة لم تكن لأحد من الناس»(٤).

وعن ابن عباس (رضي الله عنه) عن علي (عليه السلام) قال:

«كان لي من النبي (صلى الله عليه وآله) مدخلان: مدخل بالليل ومدخل بالنهار»(٥).

ولقد كان ذلك الإعداد الرسولي منصباً على جميع جوانب شخصية الإمام (عليه السلام) من أجل تأهيله فكرياً ونفسياً لاحتلال موقع المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الإسلامية بعد غياب رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن مسرح الحياة..

وحيث أن حديثنا هذا يهدف إلى دراسة العطاء الفكري الثر الذي طرحه الإمام (عليه السلام) في الساحة الإنسانية فلا بد من أن نشير إلى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أكمل بناء الجانب الفكري من شخصية الإمام (عليه السلام) وأهله لخلافته في هذا المضمار، أخذ (صلى الله عليه وآله) يبلغ الأمة بحقيقة ما وصل إليه الإمام (عليه السلام) من مستوى عظيم في ميدان المعرفة:

قال (صلى الله عليه وآله):

- «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأتيه من بابه»(٦).

- «علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به»(٧).

وعن ابن مسعود قال: كنت عند النبي (صلى الله عليه وآله) فسئل عن علم علي (عليه السلام) ؟ فقال:

- «قسمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي»(٨).

وهناك أحاديث شريفة بهذا الشأن لا تكاد تحصى كثرة، وهي تهدف جميعاً إلى بيان المكانة التي يحتلها الإمام (عليه السلام) في الجانب المعرفية، وتدعو الأمة صراحة إلى وجوب أخذ معارف التشريع الإلهي عن طريقه(٩)، فمنه تستمد الهدى، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولقد أدرك الكثير من معاصري الإمام (عليه السلام) ما يحظى به (عليه السلام) من علو شاهق في مجالات المعرفة بشتى حقولها وجوانبها، وما يتبوؤه من مقام رفيع في ركب الإسلام الخالد:

فها هو ابن عباس (رضي الله عنه) يقول:

- أعطي علي ابن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأنه لأعلمهم بالعشر الباقي(١٠).

وعطاء بن أبي رباح يقول –حين سئل هل تعلم أحداً بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعلم من علي..

- لا والله ما أعلمه.

وعمر بن الخطاب يقول:

- العلم ستة أسداس، لعلي من ذلك خمسة أسداس وللناس سدس، ولقد شاركنا في السدس حتى لهو أعلم به منّا(١١).

ولكم كان الخلفاء الذين سبقوه تاريخياً يرجعون إليه في مسائل القضاء والحكم والإدارة، حتى أن عمر ابن الخطاب كان يردد «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن» أو يقول «أعوذ بالله من معضلة لا علي لها».

وعائشة تقول:

- علي أعلم الناس بالسنة(١٢).

وغير هؤلاء كثير..

على أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أفصح مراراً وفي مناسبات شتى عما يحمل من علم

شامل غزير.

فتراه يخاطب أصحابه بأن صدره يحمل علماً عظيماً تلقاه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولو وجد له حملة أمناء يتصدون لحمله وتبليغه لأودع بعض علمه لديهم:

- «إن في صدري هذا لعلماً جمّاً، علمنيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولو أجد له حفظة يرعونه حق رعايته ويروونه عني كما يسمعونه مني، إذاً لأودعتهم بعضه..»(١٣).

ثم يكشف في مناسبة أخرى عن حجم ذلك العلم الذي يحمل ويبين أبعاده ومساحته:

فعن ابن نباتة قال:

لما بويع أمير المؤمنين (عليه السلام) بالخلافة خرج إلى المسجد معتماً بعمامة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لابساً بردته فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، وأنذر، ثم جلس متمكناً، وشبك بين أصابعه، ووضعها أسفل سرته ثم قال:

- يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، حتى ينهي كل كتاب من هذه الكتب ويقول: يا رب إن علياً قضى بقضائك، والله إني لأعلم بالقرآن وتأويله من كل مدع علمه.. ثم قال... سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن أية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، وفيم نزلت، وأنبأتكم بناسخها ومنسوخها، وخاصها من عامها، ومحكمها من متشابهها، ومكيها من مدنيها والله ما من فئة تضل أو تهدي إلا وأنا أعرف قائدها وسائقها وناعقها(١٤).

«سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم جبل»(١٥).

ولو قدر أن علياً (عليه السلام) لم يتسن له أن يساهم بما ساهم به من علم جمّ – الأمر الذي سنتناول خطوطه العريضة في هذا الفصل – في المجالات الفكرية فإن نداءاته الملحة في مناسبة وأخرى: سلوني قبل أن تفقدوني: آية جلية على قدراته الفائقة في حقول المعرفة بشتى ضروبها وامتدادها.

ولو قدر كذلك أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكشف عما لعلي (عليه السلام) من سابقة في العلم وعلو شاهق في المعرفة، لكان إصرار علي (عليه السلام) على دعوة الناس بتلقي العلوم

منه شاهداً قوياً لا يرد على ما له (عليه السلام) من علم غزير، فإن ثقته العالية بنفسه في مضمار العلم هي التي تدفعه لتكرار ذلك النداء الفريد، الذي ما حدثنا التاريخ أن رجلاً قدم عليه قبل علي (عليه السلام) خوف الفضيحة والنكوص عن الإجابة!

ولقد تنبه الكثير من أصحاب العقول إلى ما ينطوي عليه ذلك النداء العلوي: سلوني، من أهمية بالغة، فقد قال سعيد ابن المسيب:

ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب»(١٦).

وعن ابن شبرمة يقول: (ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلوني إلا علي بن أبي طالب)(١٧).

فالنداء المذكور بكثرة إلحاحه وحرارته يحمل بين ثناياه ما حواه الإمام (عليه السلام) من علم شمولي يمد الإنسان بالغنى والخير والهدى والسداد.

١ - شرح نهج البلاغة ج١ ص١٧ وما بعدها ط١، ١٩٥٩ ط دار إحياء الكتب العربية.

٢ - روى هذا الحديث باختلاف يسير في اللفظ: مسلم في الصحيح، والحاكم في مستدرك الصحيحين وأحمد بن حنبل في: مسند والمتقي في كنز العمال، وغيرهم.

٣ - نهج البلاغة الخطبة القاصعة. رقم ١٩٢.

٤ - أنساب الأشراف ج٢ ص٩٨ - البلاذري.

٥ - خصائص الإمام علي بن أبي طالب للنسائي ص٤٩.

٦ - أخرجه الترمذي في صحيحه وأحمد بن حنبل والحاكم في المستدرك والحافظ أبو محمد السمرقندي في بحر الأسانيد وابن جير في تهذيب الآثار والأربلي في كشف الغمة نقلاً عن فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي للحافظ أحمد بن محمد الصديق الفماري ط٢، ١٩٩٦.

٧ - أبو نعيم في حلية الأولياء والديلمي في فردوس الأخبار وغيرهما نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ط الأعلمي ص٧.

٨ - أخرجه الخوارزمي وابن المغازلي الشافعي والمناقب ج٢ ص٣٠.

٩ - راجع مناقب آل أبي طالب ج١ فصل في المسابقة بالعلم، والبحار ج٤١ باب ٩٣ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها.

١٠ - بحار الأنوار ج٤٠ باب ٩٣ عن النقاش في تفسيره، ومناقب آل أبي طالب ج١ فصل المسابقة في العلم.

١١ - راجع فصل في عهد الخلفاء في الحلقة الأولى من دراستنا عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

١٢ - البحار ج٤٠ باب ٩٣ عن كشف الغمة.

١٣ - المرجع السابق باب ٩٣ نقلاً عن الخصال.

١٤ - البحار ج٤٠ باب ٩٣ ويشبهه في الإرشاد للشيخ المفيد ص١٩١.

١٥ - أعيان الشيعة ج٣ ق١ ص٦٣ عن الاستيعاب ومثلها في الإصابة والإتقان وحلية الأولياء وفي صحيح مسلم ج٦.

١٦ - نفس المصدر عن غرر الحكم للآمدي.

١٧ - نفس المصدر: عن نهج البلاغة.

في ذمة الله

أنهى الإمام (عليه السلام) مقاومة المارقين، فشمر عن ساعديه لاستئناف قتال القاسطين في الشام بعد أن فشل التحكيم عند اللقاء الثاني بين الحكمين.

وقد أمر الإمام (عليه السلام) بتعبئة جيشه، وأعلن حالة الحرب لتصفية قوى المعارضة التي يقودها معاوية، وجاء إعلان الحرب من خلال خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) خطبها في الكوفة –عاصمة الدولة الإسلامية– فضمنها دعوته للجهاد.

«.. الجهاد، الجهاد عباد الله! ألا وإني معسكر في يومي هذا.. فمن أراد الرواح إلى الله، فليخرج!»(١).

ثم بادر الإمام (عليه السلام) إلى عقد ألوية الحرب، فعقد للحسين راية ولأبي أيوب الأنصاري أخرى، ولقيس بن سعد ثالثة.

وبينما كان أمير المؤمنين يواصل تعبئة قواته من أجل أن ينهي حركة المعارضة التي يقودها معاوية في بلاد الشام كان يجري في الخفاء تخطيط لئيم من أجل اغتيال الإمام (عليه السلام).

فقد كان جماعة من الخصوم قد عقدوا اجتماعاً في مكة المكرمة، وتداولوا في أمر حركتهم، التي انتهت إلى أوخم العواقب.

فخرجوا بقرارات كان أخطرها قرار اغتيال أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد أوكل أمر تنفيذه للمجرم الأثيم (عبد الرحمن بن ملجم المرادي)، وفي ساعة من أحرج الساعات التي يمر بها الإسلام والمسيرة الإسلامية، وبينما كانت الأمة تتطلع إلى النصر على عناصر المعارضة والفرقة التي يقودها معاوية بن سفيان، امتدت يد الأثيم المرادي إلى علي (عليه السلام) فضرب الإمام (عليه السلام) بسيف وهو في سجوده عند صلاة الفجر، وفي مسجد الكوفة الشريف، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هجرية.

لقد اغتيل الإمام (عليه السلام) وهو في أفضل ساعة حيث يقوم بين يدي الله في صلاة خاشعة.

وفي أشرف الأيام إذ كان يؤدي صوم شهر رمضان.

ثم هو (عليه السلام) في أعظم تكليف إسلامي حيث كان في طريقه لخوض غمر حرب جهادية،

كما كان في بقعة من أشرف بقاع الله وأطهرها «مسجد الكوفة».

فطوبى لعلي (عليه السلام) وحسن مآب.

لكن جريمة قتل علي (عليه السلام) تبقى أشرس جريمة وأكثرها فظاعة ووحشية، لأنها جريمة لم تستهدف رجلاً كباقي الرجال، إنما استهدفت القيادة الإسلامية الراشدة.

واستهدفت كذلك اغتيال رسالة، وتاريخ، وحضارة، وأمة كلها تتمثل في شخص علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

وبهذا خسرت الأمة الإسلامية مسيرة وحضارة، وأروع فرصة وأطهرها في حياتها بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ولقد بقي الإمام (عليه السلام) يعاني من علته ثلاثة أيام، عهد خلالها بالإمامة إلى ولده الحسن السبط (عليه السلام) ليمارس بعده مسؤولياته في قيادة الأمة الفكرية والاجتماعية.

وكان (عليه السلام) طوال الأيام الثلاثة –كما كان طول حياته– لهجا بذكر الله، والثناء عليه والرضا بقضائه، والتسليم لأمره، كما كان يصدر الوصية تلو الوصية، والتوجيه الحكيم إثر التوجيه، مرشداً للخير، دالاً على المعروف، محدداً سبل الهدى، مبيناً طريق النجاة، داعياً لإقامة حدود الله تعالى وحفظها، محذراً من الهوى والنكوص عن حمل الرسالة الإلهية.

وهذه واحدة من وصاياه بهذا الشأن –مخاطباً بها الحسن والحسين سبطي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته وأجيال الأمة:

«أوصيكما، بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وأن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما، وقولاً بالحقّ، واعملا للأجر وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكما، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما (صلى الله عليه وآله) يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».

الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم.

الله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم. مازال يوصي بهم، حتى ظننا أنه سيورثهم.

الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

الله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم.

الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا.

الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.

وعليكم بالتواصل التبادل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

ثم قال:

يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون: «قتل أمير المؤمنين» ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي.

انظروا إذا أنا مت في ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل، فإن سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»(٢).

وهكذا كانت النهاية المؤلمة لهذا الرجل العظيم..

فلقد كانت خسارة الرسالة والأمة بفقده من أفدح الخسائر التي أصيبت بها الأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فبموت علي (عليه السلام) فقدت الأمة:

بطولة غدت أنشودة للزمان..

وشجاعة ما حلم التاريخ بمثلها..

وحكمة لا يعلم بعدها إلا الله..

وطهراً ما اكتسى به غير الأنبياء..

وزهداً في الدنيا ما بلغه إلا المقربون..

وبلاغة كأنما هي رجع صدى لكتاب الله..

وفقهاً وعلماً وتضلعاً بأحكام الرسالة رشحته لأن يكون باب مدينة علم الرسول (صلى الله عليه وآله) ومرجع للأمة الإسلامية في جميع شؤونها.

فسلام على أمير المؤمنين يوم ولد ويوم قضى شهيداً في محرابه ويوم يبعث حياً..

والحمد لله رب العالمين

١ - نهج البلاغة رقم الخطبة ١٨٢.

٢ - نهج البلاغة/ ترتيب د. صبحي الصالح، ص٤٢١ رقم ٤٧.

من أبعاد المعرفة

بمقدورنا بعد إيراد التوطئة المتعلقة بالحقل المعرفي عند أمير المؤمنين أن نقول أن تصوراً قد تكامل لدينا حول عمق المعرفة وشمولها عند الإمام (عليه السلام) فهو وريث رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمبين للأمة ما بعث به، ومرجعها في كل تساؤلاتها الفكرية الملحة كل ذلك حصيلة لإعداد مسبق من لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشرنا لبعض مصاديقه فيما مضى من حديث.

بقي أن نشير في هذا الفصل إلى أبعاد المعرفة التي أسداها الإمام (عليه السلام) للإنسان: المسلم منه وغير المسلم.

ففكر علي (عليه السلام) وإن كان رسالياً هادفاً إلى خدمة الرسالة الإلهية وحملتها وعاملاً على دفع عجلة مسيرة الإسلام التاريخية إلى الأمام، فإنه يبقى منهلاً عذباً لتصيب منه الإنسانية بشتى نحلها واتجاهاتها الفكرية، وهو كفيل بهدايتها إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وقبل أن نطرح الخطوط العامة للجانب المعرفي عند الإمام (عليه السلام) جدير بنا أن نشير إلى أنه (عليه السلام) بالرغم مما طرحه في دنيا الفكر الإنساني من أبواب المعرفة المتعددة فإننا نظل عند قناعتنا من أن الإمام (عليه السلام) لم تسعفه الظروف الاجتماعية والسياسية على حد سواء أن يسدي للإنسان بالكثير مما عنده من معرفة.

فإذا أهملنا الظروف السياسية التي ألمت بالإمام (عليه السلام) ومنعته من أداء مهماته على الشكل المرجو من أجل مصلحة الرسالة والإنسان – فإن الظروف الاجتماعية لا تقل خطراً عن تلك الظروف، فالمجتمع الذي عايشه الإمام (عليه السلام) لم يكن في مستواه من ناحية الوعي قادراً على إدراك الإمام وأهميته ودوره الرسالي الخطير في حياة الناس، ولعل أبلغ شاهد على ذلك ما كان يواجهه الإمام (عليه السلام) من تساؤلات فجة واعتراضات تافهة حين يدعو قومه للإفادة مما يحمل من علم جمّ تلقاه من رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ونذكر بهذا الصدد بعض تلك المواقف التي تقطر سخفاً وبلادة: -فقد خاطب الناس مرة بقوله: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة أو تهدي مائة إلا نبأتكم بناعقها،

وسائقها، ولو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه:

فقام إليه سنان بن أنس النخعي قائلاً:

أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر(١)!!

- وبينما كان الإمام (عليه السلام) يوماً يحدث قومه عن بعض حوادث المستقبل كبر على أعشى بأهله -عامر بن الحارث- ما تحدث به الإمام (عليه السلام) فقال له:

يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة(٢).

هذه بعض المواقف التي اتخذها البعض من الناس الذين عاصروا الإمام (عليه السلام) فأضاعوا أثمن فرصة مرت بالأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وبالرغم من ذلك كله فإننا ينبغي ألا نغفل ما كان ينطوي المجتمع عليه من طلاب المعرفة من أجل الوصول إلى الهدى والخير.

وكانت تلك الفئة واعية لحقيقة الإمام (عليه السلام) مؤمنة بقدرته الفائقة على طرح شتى أنواع الفكر الإسلامي في العقائد والتشريع وفي مختلف أبواب المعرفة الضرورية لمسيرة الإنسانية.

وقد قابل أمير المؤمنين (عليه السلام) أولي الألباب بنفس الثقة التي أولوها له، فخصهم بالكثير من ألوان الإعداد والتوجيه والتثقيف ليواصل المسيرة التي بدأها رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتي خط الإمامة عبر التاريخ الإسلامي ابتداء بعلي (عليه السلام) وانتهاء بأبي القاسم المهدي (عليه السلام).

وقد بلغ بالإمام (عليه السلام) أن يكشف الكثير من أسرار المعرفة لأولئك المتقين الأفذاذ من الرجال(٣).

وقد تعاهد الإمام (عليه السلام) أمر إعداد الحَمَلة الحقيقيين للرسالة الإلهية من بدأ الرسول (صلى الله عليه وآله) عملية إعدادهم أو غيرهم..

على أن الذي توفر للإمام (عليه السلام) طرحه من آراء ومبادئ وحكم ومفاهيم في ساحة الفكر الإنساني كفيل بعضه دون جميعه لإبراز عظمة الإمام (عليه السلام) وقدراته العلمية الفائقة.

وها نحن أولاً، نطرح صوراً من المعرفة عند الإمام (عليه السلام):

١ - شرح النهج ج٢ ص٢٨٦ - ونفس الرواية في البحار/ ٤٠ باب ٩٣ ص١٩٢ ولكنه يروي أن الرجل كان تميم بن أسامة التميمي.

٢ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٨٩.

٣ - شرح نهج البلاغة ج٢ ص٢٨٦ وما بعدها.

صور من الفكر العقائدي

للإمام (عليه السلام) باع طويل في طرح الصيغ المحددة للعقائد الإسلامية من خلال ما طرحه من خطب ورسائل ومواعظ ومناقشات.

والباحث فيما خلفه الإمام العظيم (عليه السلام) من ثروة فكرية يتجلى له بعمق أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أعطى للعقيدة الإسلامية ركائزها الأساسية على وجه الخصوص الكثير من الاهتمام والعناية، وأغلق الباب بوجه أي شذوذ وانحراف وعدول عن مضامينها الحقيقية بأسلوب واضح وجلي لا يمكن صرفه أو تأويله لأي معنى آخر غير ما أراده الإمام (عليه السلام). فالله تعالى وأسماؤه الحسنى وصفاته ذاته وصفات أفعاله، والرسالة والنبوة والوحي، والملائكة والإمامة والقضاء والقدر، والبعث والنشور وفلسفة الدنيا والجنة والحساب وسواها من أسس العقيدة والإسلامية قد طرحها الإمام (عليه السلام) في صيغ محددة نابضة بقوة الحجة والبرهان والوضوح.

ولو قدر للأمة المسلمة بجميع فرقها أن تنهل من المنهل العذب الرقراق الذي فجره علي (عليه السلام) في دنيا الفكر الإسلامي، لاجتمعت الكلمة وتوحد الصف والهدف، وما شهدت دنيا المسلمين أي لون من ألوان الشطحات والانحرافات المضلة التي جنح إليها رهط من أتباع المدارس الفكرية عند المسلمين.

وبقدر ما تسمح به محاولتنا لدراسة الخطوط العامة لما خلفه لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) من ثروة فكرية سنعرض نماذج من الفكر العقائدي الذي زين الإمام (عليه السلام) بها صفحات الفكر الإنساني بشكل عام:

وحدانية الله عز وجل:

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه(١).

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال «فيم» فقد ضمنه، ومن قال «علام؟» فقد أخلى منه.

كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم.

مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه متوحد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها...»(٢).

«الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، ولا تقع الأوهام له على صفة، ولا تقعد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب..»(٣).

«لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم»(٤).

«الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو أنس، لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يحد بأين، ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس»(٥).

هكذا حدد أمير المؤمنين (عليه السلام) مفهوم وحدانية الله سبحانه وتعالى، وهكذا عرف علي (عليه السلام) الله رب العالمين، ووصفه كما أراد الله تعالى أن يوصف به، فقد نزهه عن التشبيه والتجسيم والمكان والتجزئة والتبعيض وكل نقص، وأخرجه بوصفه عن كل صفة من صفات مخلوقاته، كما شاء الله تعالى أن يوصف، وكما علّم أولياءه أن ينعتوه.

الرسالة والنبوة:

وكما حدد الإمام أبعاد التوحيد وحقيقته، أعطى (عليه السلام) التحديد الموضوعي الشامل للنبوة والرسالة مبيناً فلسفتها وأهدافها، وموضحاً أن اللطف الإلهي بالعباد اقتضى إرسال الأنبياء (عليهم السلام) إلى الناس ليأخذوا بأيديهم إلى حيث الهدى والرشاد وسبيل الحقن بعد أن تنكروا لعهد الله إليهم، وخرجوا عن مقتضى الفطرة التي فطرهم الله عليها قال (عليه السلام):

«واصطفى سبحانه من ولده –من ولد آدم– أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة(٦) أو محجة قائمة. رسل لاتقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم: من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله: على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء.

إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله (صلى الله عليه وآله) لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين، ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانة من الجهالة..»(٧).

«بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لئلا تجب الحجة لهم بترك الأعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق..»(٨).

«فبعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، وليقروا به بعد إذ جحدوه وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أرآهم من قدرته، وخوفهم من سطوته وكيف محق من محق بالمثلات، واحتصد بالنقمات..»(٩).

خط الإمامة في دنيا الإسلام:

ويجلي الإمام (عليه السلام) حقيقة خط الإمامة وضرورته في دنيا المسلمين ويحدد مرامي الأئمة (عليهم السلام) ويرشد الأمة المسلمة إليهم باعتبارهم الامتداد الحقيقي للرسالة، والحملة الحقيقيين لرسالة الله تعالى وهدية للعالمين بعد رسوله (صلى الله عليه وآله)، بهم يقام الحق وتحمى الشريعة ويصان الدين، وتحفظ كلمة الله تعالى.. وتبلغ الأمة الهدى والخير، وبسواهم يكون الضلال والانحراف والضياع يقول (عليه السلام):

- «.. لا يقاس بآل محمد (صلى الله عليه وآله) من هذه الأمة أحد ولا يسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً: هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله»(١٠).

«إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم ـ لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة في غيرهم»(١١).

وبعد هذا التحديد الدقيق للإمامة وللأئمة، يحذر (عليه السلام) من مغبة نكران الأئمة والتنكر لهم «.. وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه..»(١٢).

ويحذر من مغبة نكرانهم في مسيرة الحياة الإسلامية حيث يوضح بكل جلاء أن الحق لا يحصل بسواهم وأن الهدى لا وجود له إلا بمتابعتهم «فأين تذهبون، وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم، وكيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم، وهم أزمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم وردود إليهم العطاش..»(١٣).

ثم يشير الإمام (عليه السلام) إلى أن خط الإمامة مصاحب لمسيرة الأمة، وأرض الله لا تخلو من حجة من آل محمد (صلى الله عليه وآله) يحمل الهدى للناس:

«إلا أن مثل آل محمد (صلى الله عليه وآله) كمثل نجوم السماء: إذ حوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون»(١٤).

ونكتفي بهذه النماذج من الفكر العقائدي الذي طرحه الإمام (عليه السلام) في ساحة الفكر الإسلامي، ومن شاء الاستزادة فدونه نهج البلاغة فإنه ينبوع لا ينضب يمد المتتبع بشتى ضروب

المعرفة في مضمار العقيدة وسواها.

١ ـ فطر الخلائق: ابتدعها على غير مثال سابق.

وتد: ثبّت.

الميدان: التحرك بالتمايل.

٢ ـ نهج البلاغة رقم الخطبة ١.

لا عن حدث: لا عن إيجاد موجد.

المزايلة: المفارقة والاختلاف.

الروية: التفكير.

أجال: ردد أو أدار.

همامة: اهتمام الأمر وانشغال بال.

لأم: قرن.

غرز الغرائز: أودع فيها الطباع.

قرائن: جمع قرونة وهي النفس.

الأحناء: الجوانب.

لا تقعد القلوب منه على كيفية: أي ليست له كيفية فتحكم بها.

٣ ـ نفس المصدر رقم ٨٥.

٤ ـ نهج البلاغة رقم ١٨٢.

يتعاوره: تطرأ عليه الزيادة والنقصان.

٥ ـ نفس المصدر والخطبة.

وهم: تفكير وتوهم.

النائل: العطاء.

أين: إشارة للمكان.

٦ ـ الميثاق: العهد.

الأنداد: الأمثال وهم المعبودون من دون الله.

اجتالتهم: أبعدتهم عن هدفهم.

واتر: جعل بين كل نبي وآخر فترة.

ليستأدوهم: ليطلبوا الأداء منهم.

وصب: تعب.

٧ - نهج البلاغة رقم النص ١ «باب الخطب».

نسلت القرون: تتابعت.

المحجة: الطريق الواضحة المستقيمة.

إنجاز عدته: وعده الله تعالى بإرسال محمد (صلى الله عليه وآله).

السمات: العلامات التي بشر بها النبيون السابقون لرسول الله محمد (صلى الله عليه وآله).

ملحد في اسم الله: يخرج به عن حقيقة مسماه.

٨ - نفس المصدر نص ١٤٤.

٩ - نفس المصدر رقم ١٤٧.

تجلى: ظهر بآيات لا برؤيته المباشرة.

المثلاث: العقوبات.

١٠ - خطبة رقم ٢ من نهج البلاغة.

الغالي: المغالي المبالغ الذي يتجاوز الحد في الإفراط.

١١ - نفس المصدر رقم ١٤٤.

١٢ - نفس المصدر رقم ١٥٢.

١٣ - نهج البلاغة رقم النص ٨٧.

تؤفكون: تصرفون عن الحق.

المنار: جمع منارة.

يتاه بكم: الحيرة والضلال.

تعمهون: تتحيرون.

العترة: النسل.

ردوهم وردود إليهم العطاش: هلموا إلى بحار علومهم مسرعين كإسراع الإبل العطش إلى الماء.

١٤ - نفس المصدر رقم ١٠٠.

حوى نجم: غاب.

صور من الفكر السياسي - الاجتماعي

بالرغم من قصر المدة التي قضاها أمير المؤمنين (عليه السلام) في قيادة الأمة اجتماعياً وسياسياً فإن الفكر السياسي الذي طرحه الإمام (عليه السلام) كفيل بتغطية حاجات الإنسان عبر امتداده التاريخي على هذه الأرض، فقد جاءت خطب الإمام (عليه السلام) ورسائله وأوامره وإرشاداته زاخرة بهذا اللون من الفكر، مجسداً أروع أطروحة وأنضجها لإدارة شؤون الحياة الإنسانية.

ففي الحقل الاقتصادي طرح الإمام (عليه السلام) نظاماً متكاملاً لعلاج المشكلة الاقتصادية، وظاهرة الانحراف عن خط العدالة الإسلامية في التوزيع، وحدد برامج واضحة تتجاوز الأخطاء المتراكمة في مسألة توزيع المال بين الناس من خلال منهاج التسوية في العطاء. ولم يلتمس الإمام (عليه السلام) المواقف الوعظية في علاج المشكلة الاقتصادية وإقرار العدالة في المجتمع فحسب وإنما سلك إلى جانب مخاطبة الضمائر والاستفادة من رصيد الإيمان بالله فيها، سلك سبيل استخدام الضوابط القانونية في تحقيق التوازن والعيش الرغيد، وإنهاء دور الظلم في المجتمع ومن أجل ذلك استرد الأموال التي تدفقت على جيوب فئة من الناس من غير حق، وسلك سبيل مراقبة طرق جباية الأموال، وكيفية توزيعها على قطاعات الأمة، كما شدد على مراقبة ولاته في الأمصار، واستحدث نظام المراقبة والتفتيش ليحيط علماً بتصرفاتهم وممارساتهم ومن هنا تجد الكثير من النصوص التي يوجه فيها الإمام (عليه السلام) والياً أو جابياً للمال باتجاه الطريقة المثلى في عمله المناط به، كما نجد نصوصاً يوبخ فيها الإمام (عليه السلام) ذلك الوالي أو يستدعيه للحساب أو يعزله عن منصبه لخيانة الأمانة التي أنيطت به(١).

وكما وضح الإمام (عليه السلام) مناهجه القويمة المجسدة لشرع الله تعالى في المال، كذلك فعل بالنسبة للإدارة وشؤون القيادة الأخرى في المجتمع، فبالرغم من كثرة النصوص التي حفظها لنا نهج البلاغة وكتب السيرة الأخرى التي يحدد (عليه السلام) فيها مسؤولية الولاة والعمال على البلدان، وما ينبغي أن يلتزموا به في حياتها العملية، يطرح الإمام (عليه السلام) المواصفات الواجب توفرها في شخصية الحاكم المسلم سواء أكان حاكماً عاماً للأمة أو حاكماً محلياً، ونكتفي

هنا بذكر بعض من هديه بهذا الصدد.

«و.. وقد علمتهم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم، والأحكام، وإمامة المسلمين: البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»(٢).

«من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»(٣).

«لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع، ولا يتبع المطامع».

وإذا شئنا الرجوع إلى أوسع نص لتحديد مواصفات الحاكم المسلم، ففي عهد الإمام (عليه السلام) إلى مالك الأشتر حين ولاه على مصر فإن فيه غنى عن طرح أي دليل آخر، حيث اشتمل العهد المذكور على كل مستلزمات القيادة الصالحة، وما ينبغي أن تنهض به من مسؤوليات في حياة الأمة على الصعيد الاجتماعي، والسياسي والاقتصادي، وسوى ذلك من شؤون.

كما حدد العهد بعمق واع كل ما يتطلبه المجتمع وما ينبغي للحاكم المسلم النهوض به عبر مسؤولياته القيادية كي يستجيب لطموحات الأمة التي يدير دفة حياتها(٤).

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن عهد الإمام (عليه السلام) إلى الأشتر قد انطوى على أفكار اجتماعية غاية في الأهمية، فقد تناول الإمام (عليه السلام) تركيبة المجتمع، والقوى المؤثرة، والقطاعات الضرورية فيه تناول خبير ملم بها، فقد درس الإمام (عليه السلام) أهمية القطاع الزراعي وأثر التجار والقضاة والولاة والجنود في مسيرة المجتمع وبناء الحضارة، وحدد كيفية التعامل مع تلك القوى الهامة في المجتمع، وحدد مسؤوليات السلطة العليا تجاه كل واحدة من تلك القوى الفاعلة في الحياة العامة، كما ذكر القطاعات الضعيفة من أهل اليتم والشيخوخة وسواهم مما يعتبر وجودهم طبيعياً في المجتمعات، فدرس حالهم وحدد العلاج لما يعانون(٥).

وهذا وقد سبق الإمام (عليه السلام) علم الاجتماع في دراسته للمجتمع وتحديد المؤثرات فيه بزمن طويل، مما يستحق أن يحمل بجدارة لقب مؤسس علم الاجتماع والواضع للبناته الأولى، مع اختلاف على الرؤية والمنهج.

١ - راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب (الفصل الأول) لملاحظة النصوص بهذا الصدد.

٢ - نهج البلاغة رقم ١٢٩.

النهمة: المبالغة في الحرص وشدة الشهوة.

الحائف: الظالم.

المقاطع: حدود الله.

الدول: المال.

والمراد بالحائف بالدول: الظالم في توزيع المال حيث يفضل قوماً على قوم في العطاء.

٣ - نفس المصدر رقم ٧٣ في باب المختار من كلامه (عليه السلام).

٤ - يراجع عهد الإمام (عليه السلام) إلى مالك الأشتر واليه على مصر في نهج البلاغة رقم ٥٣ في باب الكتب.

٥ - نفس المصدر.

مصنفات الإمام (عليه السلام) وأعماله العلمية

وأمير المؤمنين (عليه السلام) أول من صنف في دنيا المسلمين، ويحصي المؤرخون لسيرة الإمام (عليه السلام) عدداً من مؤلفات الإمام وأعماله العلمية تأتي في طليعتها.

١- جمع القرآن الكريم مرتباً حسب النزول:

وبيّن في ذات الوقت عامه، وخاصه، ومطلقه، ومقيده ومحكمة ومتشابهة وناسخة ومنسوخة، وعزائمه ورخصه، وسننه، وآدابه(١). كما أشار الإمام (عليه السلام) إلى أسباب النزول لآيات الكتاب العزيز، حتى لقد قال ابن سيرين: لو أصبت ذلك الكتاب لكان فيه العلم(٢).

وجمع الإمام (عليه السلام) للقرآن الكريم على النمط المذكور إنما هو للتفسير أقرب منه للجمع الخالص، فقد أودع عمله ذلك علماً كثيراً، الأمة في مسيس الحاجة إلى مثله.

كما أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد تفرغ للعمل الرسالي الكبير، بعد حادثة السقيفة وما تمخض عنها من استخلاف أبي بكر، فعكف (عليه السلام) على إنجاز المهمة التاريخية في تدوين القرآن في مصحف واحد، ولقد روى عنه بهذا الصدد قوله:

- «لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن»(٣).

وبمقدور المرء أن يقدر قيمة ذلك العمل إذا وضع نصب عينيه ما يحظى به القرآن الكريم من قيمة عظمى في دنيا المسلمين من الوجهة الفكرية والتشريعية والحضارية.

٢- مصحف فاطمة:

ويبدو أن الإمام (عليه السلام) بادر ــبعد إنجاز مهمة جمع القرآن إلى تأليف كتاب لفاطمة الزهراء (عليها السلام) صار يعرف عند أبنائها بمصحف فاطمة، وكان يتضمن مواعظ وحكماً وأمثالاً وعبراً وأخباراً وأفكاراً مستقبلية لتكون عوناً على التخفيف من الآلام التي اكتنفت حياة الزهراء (عليها السلام) بعد وفاة أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٣- الصحيفة:

وهي كتاب في الديات «وهي الأموال المفروضة في الجناية على النفس أو الطرف أو الجرح أو نحو ذلك وتثبت الدية في موارد الخطأ المحض أو الشبيه بالعمد أو فيما لا يكون القصاص فيه أو لا يمكن..»(٤).

وقد روى البخاري ومسلم من تلك الصحيفة، أوردها ابن سعد في كتابه الجامع، كما أكثر ابن حنبل الرواية عن هذه الصحيفة.

٤- الجامعة:

وهي في كتاب صحائف من الجلود، أملاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد تضمن كل ما يحتاج إليه الناس من حلال وحرام، وقد جاء الكتاب مفصلاً لما جاء في كتاب الله من أحكام وأوامر ونواه.

وقد ورث الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) هذا الكتاب كابراً عن كابر، وكانوا يطلقون عليه تارة اسم الجامعة، وتارة الصحيفة، وأخرى كتاب علي، ورابعة الصحيفة العتيقة.

ووردت عن الصادقين (عليهم السلام) عدة روايات تؤكد أهمية كتاب الجامعة، وكونه مرجعهم في أخذ التشريع الإلهي، وأنهم لا يحتاجون إلى الناس لوجود ذلك الكتاب، فعن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «أن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا، وأن عندنا كتاباً أملاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وخطه علي (عليه السلام) صحيفة فيها كل حلال وحرام»(٥).

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام) أيضاً يصف فيه الجامعة «تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها حتى أرض الخدش»(٦).

٥- صحيفة الفرائض:

ويبدو أن هذه الصحيفة قد دون فيها الإمام (عليه السلام) قضاءه في المواريث أو غيرها من أبواب القضاء، ومن المرجح أن تكون هذه الصحيفة بعضاً من الجامعة(٧).

٦- كتاب الجفر:

«وهو لغة جلد الماعز أو البعير أو الثور»:

وقد أطلق اسم الجفر على أحد أبواب العلم الذي دونه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من أملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) على جلد، ويبدو أن كتاب الجفر غير الجامعة من ناحية الفكر الذي يتضمنه، فالجفر كما تفيد روايات الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) ينطوي على حوادث المستقبل، وصحف الأنبياء السابقين والكتب المنزلة قبل القرآن الكريم(٨).

وللإمام علي (عليه السلام) تصانيف أخرى وذكرها المؤرخون ككتاب زكاة النعم، وكتاب في أبواب الفقه، وكتاب في علوم القرآن وغيرها(٩).

المصنفات في تراث الإمام الفكري:

وبالرغم من أن الإمام (عليه السلام) قد دون عدداً من المؤلفات العظيمة فإنه يبدو أن مؤلفاته قد انصبت على ما قضت به الضرورة من حفظ الرسالة الإلهية وتوضيح معالمها للأجيال من خلال شرح القرآن الكريم، وتبيان بعض مقاصده، أو تحديد بعض أبواب الفقه الإسلامي، أم آراؤه وأفكاره الأخرى التي تحتل مركز الريادة في الفكر الإسلامي، والتي جاءت انعكاساً للرسالة الإلهية على صفحة ذهنه وعقله، فكانت خطباً ومناقشات وحكماً ومواعظ وتوجيهات ونحوها من أدوات التعبير عن ماهية الرسالة، فإن الإمام (عليه السلام) لم يتصد لجمعها في تصانيف محددة ومن المؤكد أن يكون جزء كبير منها قد اندرس بيد أن بعضاً من آرائه وأفكاره قد حظي بالتدوين بعد زمن طويل من وفاة الإمام (عليه السلام) ومن المرجح أن يمثل ذلك البعض نسبة قليلة جداً من عطائه الفكري العظيم عبر عمره الشريف.

فقد جمع العلماء بعض ما خلفه الإمام (عليه السلام) من مبادئ ومفاهيم في مؤلفات عديدة نذكر منها:

١- نهج البلاغة، جمعه الشريف أبو الحسن الرضي ابن الحسين الموسوي، المتوفى سنة ٤٠٤ للهجرة ويشتمل الكتاب على ما اختاره الشريف من خطب الإمام (عليه السلام) وكتبه ورسائله وحكمه ومواعظه، وقد اهتم بالكتاب المذكور جل العلماء والمفكرين ورجال الأدب قراءة واستيعاباً وشرحاً، حتى بلغت شروحه خمسين شرحاً ومن الشراح للنهج: أبو الحسن البيهقي، والإمام فخر الدين الرازي، والقطب الراوندي، ومحمد ميثم البحراني، وعز الدين بن أبي الحديد

المدائني، وغيرهم.

ولقد انطوى نهج البلاغة على روائع في الفكر بشتى شعبه ومناحيه:

في العقائد والأخلاق ونظام الحكم وطبيعة المجتمع وعلاقة الإنسان بالله تعالى ونحو ذلك من أبواب.

وهو إلى جانب ذلك جاء آية في الأدب الإنساني الرفيع الذي عز نظيره في أدب اللغة العربية دقة وعمقاً وتصويراً.

٢- مسنده الذي جمعه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ للهجرة وأسماه مسند علي، وقد ضمنه بعض ما أثر عن الإمام (عليه السلام) من أحاديث وروايات عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٣- غرر الحكم ودرر الكلم، جمعه عبد الواحد بن محمد الآمدي، وهو يشتمل على طائفة من حكم الإمام (عليه السلام) القصيرة ويقارب في حجمه نهج البلاغة.

٤ - مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب جمعه أبو إسحاق الوطواط الأنصاري ويحتوي على طائفة من حكم الإمام (عليه السلام).

٥- مائة كلمة جمعها الجاحظ.

٦- نثر اللآلئ جمع أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب مجمع البيان في تفسير القرآن.

٧- ما اشتمل عليه كتاب صفين لنصر بن مزاحم من خطب الإمام (عليه السلام) وكتبه.

٨- جنة الأسماء. شرحه الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ للهجرة.

٩- ما أثر عنه من الأدعية والمناجاة قد طبع بعضه باسم الصحيفة العلوية. جمعها عبد الله بن صالح السماهيجي.

١٠- قلائد الحكم وفرائد الكلم جمع القاضي أبي يوسف الإسفراييني، وغير ذلك من التصانيف(١٠).

١ - المراجعات/ السيد عبد الحسين شرف الدين مراجعة (١١٠) ص٣٢٤.

٢ - نفس المصدر.

٣ - مناقب آل أبي طالب ج١ «في المسابقة بالعلم» ج٢ ص٤١.

٤ - مباني تكملة المنهاج ج٢ كتاب الديات/ السيد أبو القاسم الخوئي.

٥ - أصول الكافي ج١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة (عليها السلام)

٦ - الأديم: الجلد.

الفالج: الجمل العظيم ذو السنامين.

والأرش: دية الجراحات.

٧ - عقيدة الشيعة في الإمام الصادق/ السيد حسن يوسف مكي العاملي ص٦٥.

٨ - يراجع أصول الكافي ج١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة (عليها السلام) وعقيدة الشيعة في الإمام الصادق ص٦٦.

٩ - أعيان الشيعة ج٣ قد ٢ باب «مؤلفات أمير المؤمنين (عليه السلام)».

١٠ - راجع أعيان الشيعة ق ٢ ج ٣ ص٢٧٤ ط٣ - بيروت للسيد محسن الأمين.

أنباء المستقبل

والمقصود بها هنا ما تحدث به الإمام (عليه السلام) عن أمور مستقبلية وشيكة الوقوع بعد عصره، منها ما يختص بأفراد معينين، ومنها ما يتعلق بمسيرة الأمة المسلمة كمجموع.

وبطبيعة الحال إن ما طرحه الإمام (عليه السلام) من هذا القبيل كان قد تلقاه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) مباشرة، أو وعاه بنفسه بما أعطاه الله من طاقة روحية هائلة تمنحه القدرة على استقراء المستقبل والاستشراف على حوادثه وقواه المؤثرة، والجوانب الإيجابية فيه والسلبية.

ولقد رأينا في بداية هذا الفصل كيف أن الإمام (عليه السلام) يعلن على المنبر مراراً عن قدرته على كشف الكثير من أحداث المستقبل: «.. لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا نبأتكم بناعقها وقائدها، وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت موتاً..»(١).

وإذا تتبعنا الفكر المستقبلي الذي حفظته لنا سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وجدناه –بالرغم من قلته بالقياس إلى غيره من أبواب فكر الإمام (عليه السلام)– آية على عظمة الإمام (عليه السلام) وسمو كيانه الروحي الذي أهله لمعرفة الكثير من أسرار المستقبل بما فيها من متغيرات في دنيا الأفراد والجماعات.

وهذه جملة مما حفظ لنا المؤرخون في هذا المضمار:

١- عن سويد بن غفلة أن علياً (عليه السلام) خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره، فقال:

- يا أمير المؤمنين، إني مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له،

فقال (عليه السلام):

- والله ما مات، ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب بن حمار.

فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال:

- يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمار وإني لك شيعة ومحب، فقال: أنت حبيب بن حمار؟ قال:

نعم.

فقال له ثانية: والله إنك لحبيب بن حمار؟

فقال: أي والله!

فقال (عليه السلام): أما والله إنك لحاملها ولتحملنها، ولتدخلن بها من هذا الباب، «وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة» قال ثابت الشمالي –الذي روى الحديث عن سويد بن غفلة.

- فوالله ما مت حتى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى (حرب) الحسين بن علي (عليه السلام) وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته، وحبيب بن حمار صاحب رايته فدخل بها من باب الفيل(٢).

٢- عن إسماعيل بن رجاء قال:

قام أعشى باهلة –وهو غلام يومئذ حدث– إلى علي عليه السلام وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال:

يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة!

فقال علي (عليه السلام): إن كنت آثماً فيما قلت يا غلام، فرماك الله بغلام ثقيف، ثم سكت، فقام رجال، فقالوا:

- ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال:

- غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة إلا انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه، فقالوا:

- كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال:

- عشرين إن بلغها، قالوا:

- فيقتل قتلاً أم يموت موتاً؟ قال:

- بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء –راوي الحديث– فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة، أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج (بن يوسف الثقفي) فقرعه، ووبخه واستنشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس(٣).

٣- عن شمير بن سدير الأزدي قال:

قال علي (عليه السلام) لعمرو بن الحمق الخزاعي.

«يا عمرو إنك لمقتول بعدي وإن رأسك لمنقول وهو أول رأس ينقل في الإسلام، والويل لقاتلك!

أما إنك لا تنزل بقوم إلا أسلموك برمتك.

قال الأزدي – راوي الحديث– فوالله ما مضت الأيام حتى تنقل عمرو بن الحمق الخزاعي في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب خائفاً مذعوراً، حتى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه، فقتل، وحمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام، وهو أول رأس حمل في الإسلام من بلد إلى بلد(٤).

٤ - أخبار الإمام (عليه السلام) عن الضربة التي يضرب في رأسه فتخضب منها لحيته بسيف ابن ملجم المرادي.

٥ - أخباره بامتلاك معاوية لأمر المسلمين بعده.

٦ - أخباره عن قتل الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء.

٧ - أخباره عن الحجاج بن يوسف الثقفي وما يكون من فعله.

٨ - أخباره عن حركة عبد الله بن الزبير وفشله وقتله.

٩ - وعن هلاك البصرة بالغرق مرة وبسيطرة الزنج عليها أخرى.

١٠ - وأخباره عن مقتل محمد صاحب النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد ثورتهم على العباسيين في عهد أبي جعفر المنصور.

١١ - وعن قيام الدولة العلوية في المغرب، ودولة بني بويه في العراق.

١٢ - أخباره عبد الله بن العباس عن انتقال الحكم إلى أولاده وقيام الحكم العباسي.

١٣ - وعن خروج الإمام المهدي عجل الله فرجه وقيام دولة الإسلام المباركة(٥).

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن نهج البلاغة ينطوي على الكثير من النصوص التي تناول الإمام (عليه السلام) فيها الحديث عن أمور مستقبلية، وقعت بعد عصره، وأخرى نعيش طرفاً منها(٦).

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٢ ص٢٨٦/ والبحار ج٤٠ ص١٣٠ عن المنهج.

٢ - شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ج٢ ص٢٨٧.

٣ - نفس المصدر ص٢٨٩.

أعشى باهلة: عامر بن الحارث.

٤ - نفس المصدر ص٢٩٠.

٥ - دراسات في نهج البلاغة - محمد مهدي شمس الدين ط٢. ١٩٧٢ ص١٨٦ وما بعدها.

وللاستزادة يراجع فصل المغيبات من نفس الكتاب ج٢ ص٢٨٦ وما بعدها من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط١ سنة ١٩٥٩.

٦ - مثل خطب الملاحم رقم ١٠١، ١٢٨، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٨، ١٨٧، والخطب التي تتحدث عن آخر الزمان مثل ١٠٨، ١٠٣، ١٦٦.

الملاحم: الوقائع العظيمة.

طرف من مواعظ الإمام

وللإمام باع طويل في طرح المواعظ البليغة التي تحمل الحجج البالغة، فتهز السامع والقارئ، وتترك أثراً عظيماً في النفس.

والموعظة عند علي (عليه السلام) تحمل مفاهيم وعطاء ثراً، تحدد للمسلم طريقة إلى الله وأساليب تفاعله مع رسالة الله تعالى ومع الناس من حوله.

وفضلاً عما حمله نهج البلاغة من مواعظ لأمير المؤمنين (عليه السلام) فإن كتب الوعظ والإرشاد والتوجيه الإسلامي لا يكاد يخلو منها كتاب من ذكر بعض من مواعظ الإمام (عليه السلام).

ونذكر هنا طرفاً من مواعظه التي ضمنها نهج البلاغة:

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل.

أيها الناس: إنما يجمع الناس الرضى والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه:

«فعقروها، فأصبحوا نادمين» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة.

أيها الناس، من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه»(١).

- «أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتم. إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم: فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»(٢).

- «أوصيكم عباد الله بتقوى الله، التي هي الزاد وبها المعاد: زاد مبلغ، ومعاد منجح، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، وفاز واعيها».

عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم،

وأظمأت هواجرهم فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادروا العمل، وكذبوا الأمل، فلاحظوا الأجل..»(٣).

١ - رقم النص ٢٠١ (باب الخطب).

السخط: الغضب.

ثمود: قوم نبي الله صالح (عليه السلام).

خارت: من الخوار صوت الثور، أي حين خسف الله أرضهم كان لها صوت كصوت الثور.

السكة المحماة: حديدة المحرات.

الأرض الخوارة: اللينة الهشة.

٢ - نفس المصدر رقم ٢٠٣.

مجاز: ممر إلى الآخرة.

٣ - نفس المصدر ص١١٤.

وعاها: فهمها وحفظها.

حمت: منعت، يعني التقوى منعت الأولياء من ارتكاب الجرائم.

الهواجر: الأيام الشديدة الحر ومع شدة حرارتها فقد أظمأ المتقون أنفسهم فيها صوماً.

النصب: التعب.

قبس من حكم الإمام

ونختم هذا الفصل بإيراد إضمامة من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام) إتماماً للفائدة:

١- إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

٢- أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

٣- من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

٤- ما أضمر أحد شيئاً إلا وظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه.

٥- فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.

٦- قيمة كل امرئ ما يحسنه.

٧- قال عليه السلام يصف الغوغاء: «هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا».

٨- عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار.

٩- أربع لو ضربتم فيهن أكباد الإبل، لكان ذلك يسيراً: لا يرجون أحد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي أن يقول لا أعلم إذا هو لم يعلم، ولا يستكبر أن يتعلم إذا لم يعلم.

١٠- اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم.

١١- الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق(١). والتقصير عن الاستحقاق في أحسد.

١٢- عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء.

١٣- من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ.

١٤- الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله(٢). ولم يؤمنهم من مكر الله.

١٥- رب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه.

١٦- عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينيك.

١٧- لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث:

نكبته، وغيبته، ووفاته.

١٨- الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

١٩- الناس أعداء ما جهلوا.

٢٠- من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها(٣).

وهكذا نصل إلى نهاية المطاف في حديثنا عن المقومات العامة لشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وفقنا الله تعالى للأخذ بنهجه في الفكر والعمل أنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

(تمّ الكتاب بعونه تعالى)

١ - ملق: التملق.

العي: العجز.

٢ - روح الله: لطفه ورأفته.

مكر الله: أخذه للعبد بالعقاب دون شعوره.

٣ - للمزيد راجع باب المختار من حكم الإمام (عليه السلام) في نهج البلاغة، وتحف العقول لابن شعبة الحراني وج١٩ وج٢٠ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرها.